أنور الجندي

عبد العزيز الثعالبي

رائد الحرية والنهضة الاسلامية



دار الغرب الإسلامي

عبد العزيز الثعالبي

رائد الحرية والنهضة الإسلامية

الطبعة الأولى
١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤م

دار الغرب الإسلامي
شارع الصوراتي (المعماري) ــ الحمراء ــ بناية الأسود
تلفون: 340131 - 340132 ــ ص.ب. 5787-113 بيروت ــ لبنان

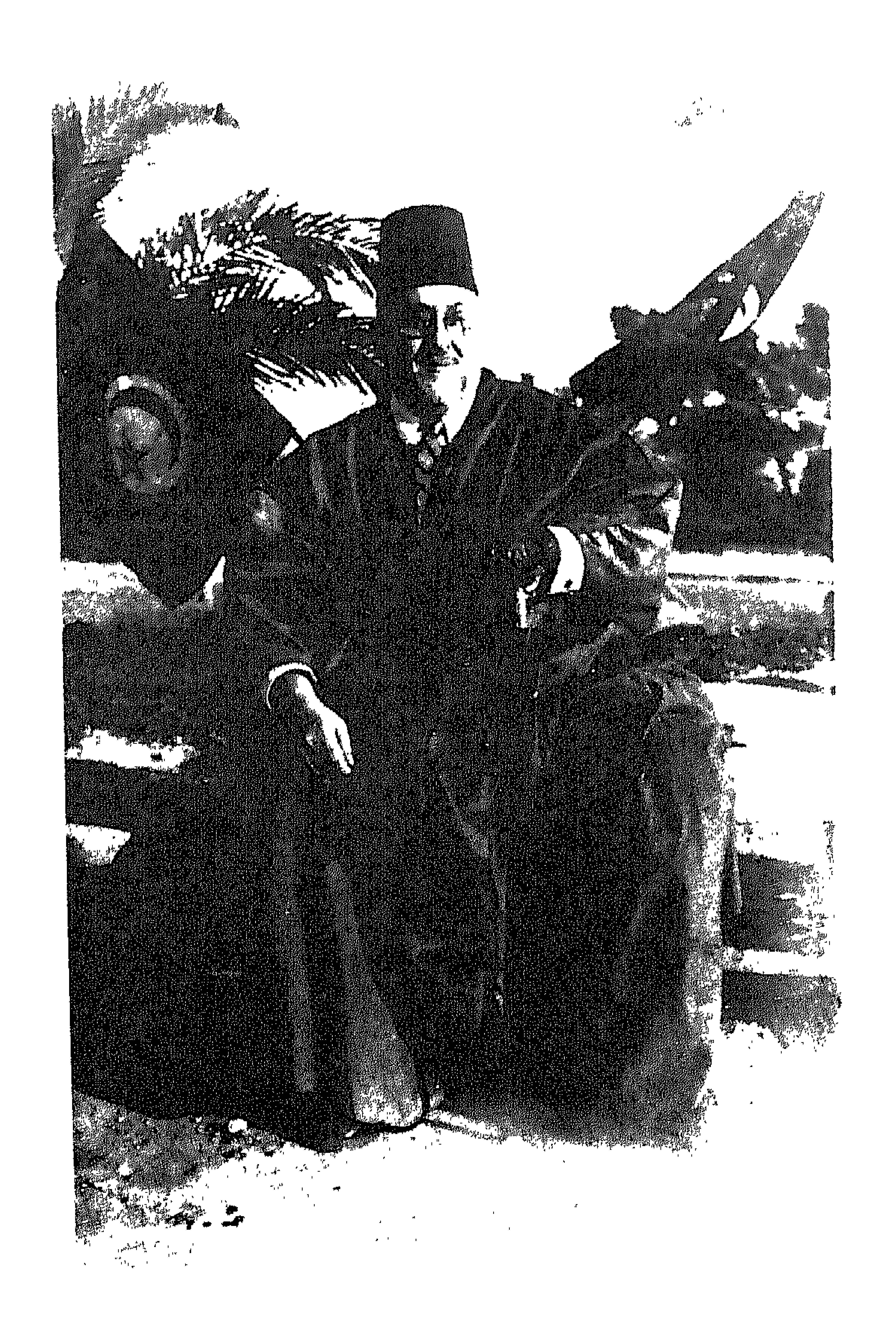
عبد العزيز الثعالبي

رائد الحرية والنهضة الإسلامية

أنور الجندي



دار الغرب الإسلامي
بيروت - لبنان



الباب الأول

معالم حياته

الثعالبي في مصر للمرة الأولى ١٨٩٧

هجرته الثانية ١٩٢٣

استقر في بغداد ١٩٢٥ - ١٩٣١

استقر في مصر ١٩٣٢ - ١٩٣٧

العودة الى الوطن ١٦ يونيه ١٩٣٧

معالم حياته

عبد العزيز الثعالبي : واحد من ذلك الرعيل من المجاهدين المسلمين في الوطن العربي إبان الحملة الاستعمارية التي اجتاحت المشرق الاسلامي ، وقد تميز هذا الرعيل بطابع خاص فهم لم يكونوا زعماء سياسيين أو مجاهدين وطنيين أو صحافيين أو كتّاب، أو مصلحين اجتماعيين وكلهم كانوا كل ذلك مجتمعاً في شخصياتهم القوية الصلبة التي واجهت الاحتلال الأجنبي مضحية بكل ما تملك ، مستهينة بكل جهد ، مستبسلة في سبيل المقاومة ، قد استمدوا مفهومهم في المقاومة والجهاد من مفهوم الاسلام ، ذلك الرعيل الذي لم يلبث الاستعمار أن تخلص منه بعد ان انشأ مدراس السياسة المنفصلة عن مفهوم الجهاد الاسلامي الجامع ، فكانوا قذى في عيون الاحتلال ، ذلك انهم ما كانوا ليقبلوا مسالمة او مهادنة او تفاهماً وبلادهم محتلة

وأرضيهم مغزوة وعقيدتهم معرضة للخطر الشديد ولقد كان للثعالبي قرناء في الوطن العربي من أمثال عبد العزيز جاويش ومصطفى كامل ومحمد فريد وكان هؤلاء بمثابة حلقة متصلة بحركة اليقظة الاسلامية التي يتقدمها الامام محمد بن عبد الوهاب ومحمد علي السنوسي ومحمد احمد المهدي وكان من بين رجالها السلطان عبد الحميد وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي عاش حياة طويلة خصبة (١٨٧٤ - ١٩٤٤) فشهد تلك المرحلة الخطيرة من حياة العالم الاسلامي وشهد دخول الاحتلال الفرنسي الى تونس (وهو في سن السابعة) وعاش يدرس ويراجع ذلك الحدث الخطير الذي وقع في الجزائر ١٨٣٠ ، هذا الحدث الذي يتصل بفكرة المقاومة العامة التي بدأها الأمير عبد القادر وتلك المحاولة التي قام بها محمد علي السنوسي الذي طوف بالعالم الاسلامي على أثر احتلال الجزائر باحثاً عن اجابة صحيحة لهذا التحدي الخطير الذي كانت هذه المنطقة تواجهه لأول مرة وتمثل وقائع حياة عبد العزيز الثعالبي في رحلاته الى المشرق ، رحلته الأولى ١٨٩٧ ورحلته الثانية ١٩٢٣ وينتهي ربع قرن ، وقد امتدت.هذه الرحلة التي امتدت الى عام ١٩٣٧ سبعة عشر عاماً ثم كانت عودته الى الوطن تونس (١٩٣٧) حيث واصل جهاده الداخلي الى ان توفي ١٩٤٤ .

لم تكن هذه الرحلات الا هجرة من وجه الاستعمار الغاشم الذي طارد المجاهدين في كل وطن عربي ، فكما طارد عبد العزيز جاويش الى اوروبا (١٩٠٩ ـ ١٩٢٢) ثلاثة عشر عاما ليخمد هذا الصوت في مصر كذلك فقد طارد الثعالبي الذي هاجر الى المشرق باحثاً عن أمر العالم الاسلامي وقضاياه وتحديات الاستعمار فيه فلم يـدع قطراً عربياً دون ان يمر به بل قد تعدى حدود الوطن العربي الى الهند والى الصين مقيماً خلال ذلك فترة في العراق وفترة في مصر .

ولم يكن عبد العزيز الثعالبي في هذا النضال الذي ارتضى له القلم صحافة وكتابة ، وعمل في ميادين الاصلاح الاجتماعي والاقتصادي والسياسي الا متابعاً على الطريق قومه الذين جاهدوا من قبل .

فقـد اشترك جـده سيدي عبـد الرحمن الثعـالبي في قتال الفرنسيين حين غارتهم على الجزائر (١٨٣٠) وكان من زعماء تلك الحركة ولما تمت الغلبة لهم ، عينه المارشال بيجو كبيراً لقضاة الشرع في الجزائر فأبى وأصر فلم يجد بدأ من القبول فشغل هذا المنصب سنتين أو أقل ثم استأذن في السفر الى تونس وسافر تاركاً في (بجاية) بيته وعقاره وامتعته وفضل الاقامة في

العزلة على ولاء القضاء للفرنسيين المحتلين وما زلت أذكر وقد كنا نشهد الملتقى الاسلامي في بجاية ان ذكر لنا رواد المؤتمر ان الثعالبي جزائري الأصل .

وقد عاش الثعالبي في مهجره سواء في القاهرة أو بغداد وهو يتابع قصة العالم الاسلامي الواقع تحت الاحتلال بصفة عامة ويتابع قصة تونس واحتلال فرنسا لها بصفة خاصة وكانت كتاباته المتصلة تتناول هذه القضايا وتكشف وجهة نظر مجاهدة مؤمنة ازاء ما تثيره سموم الاستعمار والتخريب .

المرحلة الأولى

ولد عبد العزيز بن ابراهيم بن عبد الرحمن الثعالبي في مدينة تونس الخضراء (١٤ شعبان ١٢٩٣) - ١٨٧٤ ميلاد - نشأ وتعلم في كنف جده عبد الرحمن الثعالبي القاضي المجاهد الجزائري الذي هاجر الى تونس ترفعا واعتزازاً عن ان يعمل للفرنسيين فورث عنه اخلاقه العالية ومبادئه السامية فحفظ القرآن بكتاب حومة الأندلس ودرس النحو والعقائد والآداب ودخل مدرسة باب سويقة الابتدائية في تونس بعد ان نال شهادتها ، ثم التحق بجامع الزيتونة فقضى فيه سبع سنوات وتخرج ١٨٩٦ حاملاً شهادة التطويع وأخذ يتردد على المدرسة الخلدونية متبعاً

الدراسات العالية . ولما تألف في تونس أول حزب لتحرير تونس ومقاومة الاستعمار الفرنسي عام ١٨٩٥ انضم اليه ثم أسس الحزب الوطني الاسلامي وكتب في الصحف المحلية داعياً الى الاستقلال والحريـة فاغلقت السلطة صحيفتين : المنتـظر والمبشر فأصدر جريدة سبيل الرشاد فعاشت عاماً ثم عطلتها الحكومة وأصدرت قانوناً جديداً خصت به الصحافة واشترطت على كل جريدة دفع ضمان قدره ستة آلاف فرنك تعجيزاً وتوسلاً بذلك لاغلاق الصحف الوطنية . فلما رأى ان مقدرته في العمل الوطني قد تقاصرت وضيق عليه عزم على الهجرة الى الشرق لينشر الدعاية للقضية التونسية واطلاع العالم الشرقي على حقيقتها وطلب تأييده ، غير أن الحكومة الفرنسية المحتلة منعته من السفر ، اذ ذاك فر الى طرابلس وكانت لا تزال تابعة لتركيا فتدخل القنصل الفرنسي لمنعه من البقاء فيها فأنذره الوالي سليمان نامق أن يغادرها في خلال ساعات فسافر الى بني غازي فأقام بها شهراً ثم قصد الاستانة عن طريق اليونان وبلغاريا فبلغها عام ١٨٩٨ فاتصل بأكثر رجال الدولة وأقطابها وباحثهم في القضية التونسية ، ثم غادر الاستانة عقب ذلك فجاء مصر للمرة الأولى فاجتمع بكثير من الأقطاب وذوي الرأي وباحثهم ثم لم يلبث ان غادر القاهرة الى الاستانة ثانية واتصل في هذه المرة

ببعض رجال الحكومة وطلب اليهم تعزيزاً للصلات بين تونس وتركيا وفتح أبواب المدرسة الحربية العثمانية في وجه الطلاب التونسيين .

ثم عاد الى تونس ١٩٠٢ بعد أن أمضى في المشرق سنوات أربع متنقلاً بين مصر والاستانة وما بينهما متصلاً برجال الشرق وأقطابه وعاملاً على نشر الدعوة للقضية التونسية حيث بدأ صفحة جديدة من الجهاد استمرت حتى عام ١٩٢٣ ويصور الاستاذ الثعالبي هذه المرحلة تصويراً بارعاً : فيقول :

هبت تونس للجهاد وارادت التخلص من الاستعمار وهي بلد بني الأغلب وغيرهم من العرب الفاتحين، هؤلاء الاغالبة الذين لم تترك اساطيلهم جزيرة من جزر البحر المتوسط الا استولت عليهاوامتد سلطانهم على الشاطىء الأفريقي والأوروبي حتى وصلوا الى ليون ونزلوا في التيرول الى سويسرا فكونوا دولة عربية واسعة وجاء العبيديون فحولوا تيار الحرب من أوروبا الى إفريقية والى البلاد العربية .

والقوم كانوا يعملون من نحو ثمانية قرون لرفعة شأن العرب وبناء مجد العرب وقد وجدت أوروبا حين غزت الشرق العربي ممالك مبعثرة اقتطعتها عسفاً وظلماً واذلتنا واستعبدتنا على ان

وجودها كان عملية جراحية لا بد منها فلولا الاحتلال لما تنبهنا بدأنا نعمل لتحرير بلادنا بعد احتلال فرنسا لها في مايو ١٨٨١ وكنت في طريق قريب من بيتنا وانا صغير حينما دخل الجيش الفرنسوي تونس ، فرأيت الكآبة تجثم على وجوه التونسيين فاستغربت ذلك وكنت اجهل السبب وذهبت الى جدي فوجدته يبكي لأول مرة فقلت مندهشاً : ولم البكاء يا جدي ، هل ضربك أحد فقال نعم ان البلاء انصب علينا فيجب ان نرحل من هذه البلاد التي نعيش فيها ولكني قد بلغت من الكبر عتيا لا أستطيع ان ارحل واني خائف وجل ان يصيروا في المستقبل فرنسويين وكشف فأراني محل رصاص في صدره . فقلت : سأضرب من ضربك هذا الالهام الذي اودع في نفسي ما انقطع بل استمر حتى نشأت وكبرت فوجدت أصدقائي وأقراني يشعرون شعوري فاتفقنا على المقاومة وسبيل المقاومة الذي رأيناه هو تأسيس « ثقافة » اسلامية عربية لأن المدارس كانت فرنسوية تعلم فرنسويين مع ان الحكومة التونسية انشأتها لتعلم ابناء التونسيين . لقد حاولوا ان يجعلوا من العرب فرنسويين ، وكان اساتذة المدارس يؤلفون كتب الدراسة وفيها كتب التاريخ العربي ويقولون فيها إن هذه البلاد هي موطن البربر ، ثم جاء الرومان وجعلوا منها جنة فيحاء ، فلما جاء العرب خربوا ودمروا

فأبادوا هذه الجنة وأقاموا مقامها الخراب والدمار وهكذا كانوا يعلموننا التاريخ بحيث ان أبناءنا لا يعرفون من تاريخ الاسلام والعرب غيره واذا تمكن احد من تعلم شيء خارج المدرسة من دين وقومه ثم أراد ان يناقشهم فالويل له كل الويل وبالرغم من هذا ظهر أن الروح العربي كامن في النفوس العربية وهذا ما تمتاز به هذه النفوس في جميع العهود فكثيراً ما تمر بالعرب أحداث جلى يظن الانسان معها أن الروح العربي مات ولكن لا يلبث ان يظهر والواقع ان الأمم العربية من اعظم الأمم وأقدرها على مواجهة الأحداث .

ويتحدث الثعالبي عن العمل الوطني الاجمالي الذي قام به وكيف حاصره الفرنسيون وحاولوا ايقاف وجهته: يقول : لم ينازلني الفرنسيون وجهاً لوجه بل قاموا بحركة التفاف فدفعوا بعض التونسيين لمقاومتي ثم قبض علي عام ١٩٠٦ ووضعت في السجن لا بصفة كوني متهما بل باسم حمايتي من الجمهور الغاضب الذي يريد ان يفتك بي وكان الغد موعد محاكمتي ومع ان العادة جرت أن يؤخذ المسجونون من السجن الى دار المحكمة في عربة خاصة اعدت لذلك فانهم اخذوني سيراً على الأقدام فمشى الى جانبي مأمور الضبط يحيط بنا ٢٥ شرطيا شاهري السلاح ، وكان هناك عدد كبير من اهالي البلاد تجمعوا

على طول الطريق يرفعون علماً أبيض ويقولون : اقتلوا الثعالبي الكافر .

وكان اخرون يـأتون بحـركات تـدل على الاستهجان والاستنكار لا للعمل الذي يعمل معي بل استنكاراً لعملي، قال لي مأمور الضبط : الا ترى ماذا يفعل الشعب قلت : ان هذا لا يهمني فسواء عندما تظاهر الشعب لي أو معي على اني واثق من ان هذا الشعب يتظاهر لي متى عرف الحقيقة .

وقد كان الأمر كذلك فانه لما قبضت على السلطة ١٩١٢ بعد ست سنوات وقد طرقت منزلي في الساعة الرابعة بعد منتصف الليل أي في الفجر ودخول المنازل في هذه الساعة ممنوع واخرجتني الى خارج البلاد ومن دون أن يعرف بذلك أحد أقول : شاع ذلك في الغداة واضربت البلاد كلها ثلاثة أيام ، ووقفت جميع الأعمال وأصر الشعب على استعادتي فجاء الفرنسيون يلحون علي بالرجوع فأبيت ما لم يعدل وضع البلاد السياسي فقال لي الفرنسيون إنه لا سبيل الى ذلك لأن الحرب العامة على الأبواب فانتظر الى أن تنتهي . وعدت الى تونس ١٩١٤ أي قبل الحرب فرأيت معظم الأوضاع السياسية قد تغيرت ورأيت أن الفرنسيين قد استردوا ما أعطوه لنا في أثناء

حركتنا الأولى من ١٩٠٦ ـ ١٩١٢ ثم انتهت الحرب فاستأنفنا الكرة وواصلنا النضال فقبضوا علي في سنة ١٩٢٠ وسجنوني مدة طويلة في فرنسا وتونس واخرجت في اغسطس ١٩٢٣ من البلاد .

المرحلة الثانية : في تونس

عندما عاد الثعالبي الى تونس عام ١٩٠٢ كان ذلك بدء أشق مراحل حياته هذه المرحلة من الجهاد الداخلي التي امتدت الى عام ١٩٢٣ وهي المرحلة التي حفلت بالعمل الوطني والاجتماعي المتصل ، حيث أخذ يكون جيلا من الشباب التونسي ويعدهم للعمل في مختلف وجوه العمل الوطني وأخذ يوالي وضع الخطط التربوية للاصلاح الاجتماعي والديني والدعوة الى تحرير العمل ونبذ الجمود وكان يطوف البلاد التونسية لهذه الغاية ويلقي دروساً عامة فأقبل عليه الناس وأقبلوا على دعوته وما يبشر به غير ان الأمر لم يتم له على النحو الذي أراده وسرعان ما وجدت الادارة الفرنسية في حركته خطراً ورأت أن ما يدعو اليه من تعليم وارشاد يناقض ما يهدفون اليه من احتواء المفاهيم الاسلامية وتدمير القيم الاصيلة . ومن ثم واجه مقاومة شديدة من الحكومة التونسية والسلطة الفرنسية وكانت الطبقات

المتمسكة بالقديم تعارض ما يدعو اليه وسرعان ما لفقت له التهم فقبض عليه وسجن وسيق الى المحاكمة أمام محكمة تونسية بتهمة الكفر والالحاد فحكم عليه بالحبس فاحدث اعتقاله والحكم عليه ضجة كبرى في البلاد وتحرك انصاره في كل مكان فسارعت السلطات الى دعوته إلى المطالبة باستئناف الحكم امام محكمة اخرى فرفض واعلن عزمه على تمضية الحكم في السجن فعرضوا عليه ان يطلقوا سراحه شرط ان يغادر تونس الى الخارج وان تتعهد الحكومة بدفع نفقاته ولكنه رفض ذلك كله .

وكان الثعالبي قد ركز على تكوين جيل من الشباب المسلم الذي يجيد اللغة الفرنسية دافعاً اليهم الى الكتابة في الصحف الفرنسية لبسط قضية بلادهم والدعوة الى انصافها فنشروا المقالات الكثيرة في صحف الكورية دي تونزيان (البريد التونسي) والريبوبليكا (الجمهوري) فلما تمكنت هذه الجماعة من امتلاك البيان سعى إلى انشاء صحيفة تونسية باللغة الفرنسية للدفاع عن قضية البلاد فصدرت عام ١٩٠٧ صحيفة (لوتونيزيان) أي التونسي برأس مال كبير وكتب فيها نخبة من مشاهير الكتاب التونسيين الذين يجيدون اللغة الفرنسية امثال علي باش حانبة، عبد الجليل الزاوش، خير الدين بن مصطفى، ثم خطا خطوة أوسع حين تم الاتفاق عام ١٩٠٨ مع القائمين

بأمر الجريدة على اصدار جريدة باللغة العربية باسم التونسي على أن تنتهج نهجاً وطنياً فصدرت فعلاً وعكف في تلك المرحلة على نشر الدعوة لاحياء الحكم الدستوري في تونس وواجه الثعالبي وجماعته كل محاولات الاستعمار الفرنسي وخاصة فيما يتعلق باللغة العربية الفصحى حين استطارت الدعوة الى اتخاذ العامية التونسية لغة رسمية للدواوين والمدارس والتعليم وذلك بهدف قطع الصلات بين تونس والأقطار العربية وقد هاجم هذا الاتجاه هجوماً شديداً وقاومه بعنف ، كذلك عارض قرار الحكومة التونسية الخاضعة للاحتلال برصد مبلغ ضخم لوضع معجم للغة العامية التونسية وعارض أيضا قرار تأليف لجنة لوضع تاريخ تونس باللغة العامية على نحو موال للاستعمار .

كذلك وقف موقفاً حازماً في مواجهة قرار ضريبة (المجبي) التي كانت غايتها اخراج الأراضي التونسية من أيدي اهل البلاد بعد ارهاقهم بالضرائب .

وانتصرت الحركة الوطنية في مختلف هذه التحديات . وكان الثعالبي قد أنشأ (جريدة التونسي) ولما اشتعلت الحرب بين طرابلس وايطاليا عام ١٩١١ حشد الثعالبي وجماعته جهودهم المكثفة لمساعدة اخوتهم الطرابلسيين بالمال كما تطوع

الكثيرون منهم في الحرب ، وقد أحنق ذلك السلطة الفرنسية التي سرعان ما قبضت على الثعالبي وعلي باش حانبه واخرجتهما من البلاد فسافرا الى باريس وعكفا على العمل للقضية التونسية هناك ولكنه وجد الأبواب موصدة ازاء محاولاته وواصلت قوى الاحتلال معارضة وجود الثعالبي فوجهت اليه الدعوة للتجرد لخدمة العلم والقاء محاضرات في المجمع العلمي الفرنسي مقابل راتب ضخم فاعتذر وترك فرنسا الى سويسرا ومنها وصل الى الاستانة وظل بها حتى سبتمبر ١٩١٢ ثم غادرها في رحلة طويلة زار فيها مصر واليمن والشرق الأقصى ثم عاد الى تونس عام ١٩١٣ فاستأنف النضال .

وفي تونس بعد حل (جريدة التونسي) ظل رجاله يعملون في الخفاء تحت زعامة الشيخ الثعالبي ولما اعلنت الحرب العظمى مضى يرقب الحوادث ويستعد لما بعد الحرب وتمكن عن طريق مجموعة من أصدقائه في الاستانة وأوروبا من معرفة سير الحوادث وخطط المستعمرين فما ان وضعت الحرب اوزارها حتى كان من اول المطالبين الى عقد مؤتمر وطني من رجال تونس لمواجهة الموقف فتألف على أثر ذلك الحزب الحر الدستوري (رمضان ١٣٣٨) واختير زعيماً للحزب بالاجماع وفوضوه تفويضاً كاملاً بالعمل باسمهم فسافر الى باريس للدفاع

عن القضية التونسية أمام مؤتمر الصلح ومع حكومة باريس .

ولم يلبث الثعالبي ان تقدم بمذكرة الى الرئيس ولسون يطلب فيها استقلال تونس وفي نفس الوقت توجه نحو العمل على تنوير الرأي العام الفرنسي فأصدر عام ١٩٢٠ كراسته الشهيرة [تونس الشهيدة] باللغة الفرنسية حيث شرح اعمال الاستعمار الفرنسي بتونس. وبينما كان الوفد الذي يرأسه الثعالبي يوالي جهوده بباريس كان رفقاؤه في تونس ينظمون اتصالات بسمو الباي والمقيم الفرنسي العام .

كان هدف الثعالبي من انشاء الحزب ومن مفاوضاته مع مؤتمر الصلح والحكومة الفرنسية انما يحاول ان يتخذ من الأساليب العصرية وسيلة الى تحقيق الغاية العاجلة باقامة نظام دستوري يسمح لهذا الشعب ان يحكم نفسه بنفسه وفق الأسس التي يسير عليها العالم الغربي .

ولم يكن الشيخ الثعالبي يرى ان هذه الخطة هي الخطة المثلى ، وانما قد اضطر الى مسايرة التيار العام على النحو الذي كان سائداً في مصر وغيرها ، ولكن الثعالبي في الحقيقة لم يكن زعيماً سياسياً بهذا المعنى الحزبي الضيق ، ولكنه كان مصلحاً اجتماعياً على مفهوم الاسلام وله في ذلك عبارته الواضحة « ان

هذه خطة ارتضاها اخواننا تحايلاً في السياسة اما انا فقد كنت أفضل الصراحة ومع ذلك فان الاستقلال هو غايتنا جميعاً » .

غير ان الثعالبي ظل يعمل حتى اعتقلته السلطات هناك بتهمة التآمر على الدولة الفرنسية ونقل الى تونس حيث زج به في السجن العسكري كما قبض على زميليه في الجهاد محمد الريـاحي وصالح بن يحيى وقد أطلق سراحهم بعد تسعة شهور فعاد الثعالبي وصديقاه للعمل ولما طالب ان يقدم للمحاكمة رفض طلبه بحجة انه لا يوجد ما يوجب ادانته ولكنه سرعان ما احس بأن هناك محالات للتخلص منه نعم لم يكن هذا الأسلوب ليرضي الاستعمار الفرنسي ولذلك فقد كان من الضروري ازاحة الثعالبي كما ازيح محمد فريد وعبد العزيز جاويش في مصر ولذلك فانه انتهز الفرصة عام ١٩٢٣ وهاجر الى المشرق .

الانتماء الى مدرسة الامام

يـركز الاستـاذ الثعالبي خـطته الاجتمـاعية والسيـاسية والاصلاحية على نفس الخط الذي سار فيه الشيخ محمد عبده ويستمد من هذا الطريق منطلقه ويجعله نبراسه ويقرر ان الحركة

الاصلاحية في شمال افريقيا كله تدين بهذا الاتجاه وتجعل من زيارة الشيخ محمد عبده لتونس والجزائر ركيزة أساسية تشير الى اتخاذ أسلوب التجديد السلفي اسلوباً لها وتعيد مجلة المنار التي أصدرها الشيخ محمد رشيد رضا منهجاً وأسلوباً وكذلك يرى الثعالبي أن رحلة الشيخ عبده الى تونس تشكل معلماً هاماً في حياته وتجربته وقد تحدث عن ذلك بإفاضة فقال : زار الشيخ محمد عبده تونس مرتين : الأولى ١٨٨٣ أي عقب حوادث الثورة العرابية وكان في طريقه إلى أوروبا للحاق بالسيد جمال الدين الأفغاني وكان إذ ذاك كما يصوره الثعالبي - شاباً ثائراً ينادي بوجوب اتحاد المسلمين ويؤمن بإمكان إعادة الدولة الاسلامية تحت ظل لواء واحد ، هذه الدولة التي تستطيع طرد أوروبا من الشرق ، وقد أسس جمعية العروة الوثقى لهذه الغاية ونشر مبادئها في تونس أثناء هذه الزيارة وجمع لها من التبرعات ٢٠ ألف فرنك . وكانت روح التجديد الديني وطريقة استغلالها في الأعمال السياسية كانت محور حركته .

لقد التف حوله الوزراء والعلماء والوجهاء لما كان يتمتع به من سمعة حسنة وللحيوية التي كانت تشيع في دعوته .

وبعد هذه الزيارة ذهب الى اوروبا فأقام في باريس حيناً ثم ظل يتنقل بينها وبين لندن حتى اقفلت جمعية العروة الوثقى

وذهب السيد جمال الدين الى لندرة واصدر جريدة (ضياء الخافقين) فعاد الإمام الى بيروت وكان على صلة بكبار التونسيين وعلى الأخص الشيخ سالم بو حاجب وكان هذا الشيخ من العلماء العصريين الا انه يختلف عن الإمام في انه كان رجل دولة وقليل الاتصال بالشعب . ولم تكن له نزعة وطنية شديدة في كهولته وان كان قد بدا اول أمره ثائراً مثل الإمام فقد ألف مع نفر من زملائه الشبان جمعية سرية احدثت اول انقلاب دستوري في تونس ، مضى عليه الآن مائة سنة فلما قبض هؤلاء الشبان على أزمة الحكم فقدوا صلتهم بالشعب وكثيراً ما كان الشيخ بو حاجب يسافر إلى أوروبا لأداء مهام سياسية فأضاءت له هذه السفارات طريق التفكير الحر واطلع على انماط من الحياة الحديثة فأثرت في بيئته وتفكيره فلما التقى بالشيخ محمد عبده وجدَ من آرائه وأفكاره ما يربطهما . ومن هذه النقطة التقت تونس ومصر على ايدي زعيمين .

اما الزيارة الثانية للإمام الى تونس فكانت عام ١٩٠٣ كما يذكر الاستاذ الثعالبي ـ اي بعد عشرين سنة من الزيارة الاولى وكان الشيخ سالم بو حاجب على قيد الحياة فاجتمعا .

وكانت الحياة الفكرية في تونس في مطلع القرن الحاضر تنقسم الى قسمين :

(اولاً) : دعوة الى الاصلاح الديني والتجديد الفكري يقوم بها جماعة من الشباب المتعلم الذي يعمل في الحكومة ويتصل بها وهذه الصلة حملت هؤلاء الشبان على الاعتدال في آرائهم السياسية وايثار العافية والبعد عن كل عمل يعرضهم لسخط السلطات الحاكمة، عمل على ايجاد هذه الآراء مبشر فرنسي اسمه (ألبير لوازون) جاء تونس بفكرة ترمي الى التوفيق بين الاديان بحجة ان الدين المسيحي دين الهي وكذلك الدين الاسلامي ، واذن فلا داعي للخلاف بينهما ومن واجب الشعوب الإسلامية ان تتصافى وتتعاون مع الشعوب المسيحية .

(ثانياً) : تقابل هذه الآراء دعوة أخرى تعارضها كنت اعمل لها ومعي عدد كبير من شباب البلاد الذي لا يحرص على رضا الدولة المحتلة فقد وجدنا لحركة ألبير لوازون غايات خفية ترمي الى فل سلاحنا السياسي فقاومنا دعوته واقترنت حركتنا السياسية في ذلك الوقت بنزعة دينية اسلامية وقد تغلبنا على جماعة المعتدلين أو المجردين واضطر ألبير لوازون الى الرحيل عن البلاد .

ولما زار الشيخ محمد عبده تونس للمرة الثانية كان يشغل منصباً رسمياً هو افتاء الديار المصرية فلم يشأ أن يثير غضب

السلطة القائمة باتصاله بهيئتنا السياسية فاتصل بالفريق المعتدل وألقى محاضرة في المدرسة الخلدونية وأقام شهراً وترك بعد رحيله أثراً أدبياً واضحاً وذهب من تونس الى الجزائر وكنت لسوء الحظ مسافراً في المغرب الأقصى في مهمة سياسية فلم التق به .

وتحدث الثعالبي عن هذه المهمة السياسية التي قام بها فقال :

كان يحكم المغرب الاقصى في اواخر القرن الماضي مولاي حسن الرشيد وكان من اعظم سلاطين المغرب وكان كبير وزرائه أحمد بن موسى من أشهر وزراء أفريقيا فلما مات السلطان خلف عدداً من الأبناء رأى الوزير من صالحه ان يختار اصغرهم سناً لولاية السلطنة حتى يبقى له نفوذه فتولى مولاي عبد العزيز الأمر وهو من أم تركية وبعد مدة مات السلطان وتسلم خلفه ادارة البلاد ففطن احد المراقبين التونسيين لهذه الحالة وارسل تقريراً الى السلطان عبد الحميد يقترح عليه إرسال عدد من الضباط الأتراك المنفيين الى تونس للذهاب الى المغرب وتقوية الجيش هناك ولقد نفذ السلطان هذا الاقتراح فذهب عدد كبير من الضباط وسعوا حتى انضموا الى الحكومة المغربية فرحب بهم

مولاي عبد العزيز ترحيباً كبيراً واستعان بهم على تنظيم البلاد والنهوض بها في شتى فروع حياتها وقد تنبه بعض رجال الاستعمار الفرنسوي الى خطر هذه الحركة فاستعانوا على مقاومتها بأبي حمارة .

كان يعيش في مدينة زرهون شيطان من شياطين المغرب اسمه (ابو حمارة) وكان يشبه الى حد الأمير محمد أخا مولاي عبد العزيز الكبير وهو ممن حرمهم الوزير أحمد بن موسى من العرش وقد مات هذا الأمير فانتحل أبو حمارة شخصية الأمير المتوفى وادعى انه وارث السلطة الشرعي وجمع من حوله نفراً من القبائل وشن غارة عنيفة على الحكومة دامت سنتين وتغلبت الحكومة في النهاية الا انها (أي الحكومة) خرجت ضعيفة منهوكة القوى فظهر عقب الثورة مولاي عبد الحفيظ والي مراكش وهو أخو مولاي عبد العزيز فخلع أخاه وحل محله ثم عقد اتفاقه المعروف مع فرنسا وقد زرت هذه البلاد عام ١٩٠٣ لمكافحة هذه الحالة وقضيت هناك أربعة أشهر ثم عدت الى تونس .

وكان الشيخ عبده يتوق الى زيارة المغرب الا ان الفوضى التي كانت تسوده حالت دون ذهابه اليه . .

ومن هذه النصوص جميعاً نرى :

ان الشيخ الثعالبي كان رجل الملمات وانه كان ينتدب طوال حياته للاحداث الخطيرة وكانت له القدرة على عقد الاتفاقات وجمع الناس وتحرير القضايا المعقدة فهو رجل سياسة من الطراز الاول .

وانه كان يسير على خطى حركة اليقظة الإسلامية ويرى في الشيخ محمد عبده مثلاً عالياً وأن الحركة التي قادها كانت على نفس طريق التماس المنابع الأصلية للاسلام .

وانه كان له رأيه الواضح الاستقلالي من تصرفات الشيخ محمد عبده الذي لم يستطع في الزيارة الثانية أن يقابل هؤلاء المجاهدين وتجنبهم لأنه كان يزور تونس بوصفه مفتي الديار المصرية .

المرحلة الثالثة : في المشرق

كانت المرحلة الثالثة من حياة الثعالبي اخصب مراحل حياته فقد امضى خمسة عشر عاماً في هذه الهجرة بعيداً عن تونس ، وان كان قد عايش قضيتها يوماً بعد يوم وكان جهاده كله موجها الى التعريف بها وكشف اللثام عن جرائم الاستعمار الفرنسي ولكن الثعالبي في هذه المرحلة قد وسع نطاق عمله واوفى على الغاية

التي كان يتطلع اليها وهي العمل للدعوة الاسلامية العامة ومشاركة قادة اليقظة الاسلامية في دراسة العالم الاسلامي وادوائه والتحديات التي تواجهه وذلك في نطاق الوطن العربي وخارج هذا النطاق وكانت رحلاته الى الهند والى الصين واقامته هنالك من الانجازات الهامة التي حقق بها كثيراً من النتائج وقدم بها كثيراً من الدراسات والابحاث عن احوال المسلمين ومشاكلهم وقضاياهم مما يعد « تراثاً » هاماً له خطره وقيمته .

ولقد كان الثعالبي بطبيعته رجل هجرة ورحلة ، فقد رحل الى مصر منذ ١٨٩٧ وكانت له رحلات متوالية ابان العمل الوطني حيث قصد الى الجزائر والمغرب الاقصى والأندلس واسبانيا وفرنسا وسويسرا .

ثم كانت رحلته الى فرنسا والاستانة ومنها انتقل الى الهند وجاوة وعاد الى تونس قبيل اعلان الحرب العالمية ، غير ان رحلته الطويلة تلك التي بدأها اواخر ١٩٢٣ الى ايطاليا ومنها الى اليونان وتركيا حيث دخل مصر ١٩٢٣ ومنع من الدخول في العودة فعاد الى مصر وزار الحجاز وقصد المحميات العربية وانتهى به المطاف الى بغداد فاستقر بها من ١٩٢٥ الى ١٩٣١ ثم عاد الى مصر ومنها قصد الى الصين ١٩٣٣ وعاد اليها مرة

اخرى وفي عام ١٩٣٦ غادرها الى الهند على ان يرجع الى تونس فقد ابلغهم الفرنسيون انهم سمحوا له بالرجوع فعاد الى مصر أواخر ابريل ١٩٣٧ وفي ٣٠ يونيو غادر الاسكندرية الى تونس .

ولقد حفلت صحف مصر خلال هذه الفترة باحاديثه واخباره وكتاباته التي سجل فيها مشاهداته وتجاربه ولقاءاته المتصلة باقطاب العالم الاسلامي واثار فيها عشرات القضايا والابحاث عن المجتمع الاسلامي واحواله وما يتصل به بالاقتصاد والتعليم والسياسة .

كتب في هذه الفترة عشرات الابحاث ودرس قضـايا المسلمين في الهند والصين ، وارسل مبعوثاً من الأزهر الشريف لدراسة قضية المنبوذين في بلاد الهند وكتب تقريره التاريخي الذي كشف كثيراً من الحقائق التي كانت مجهولة اذ ذاك ومنها ان غاندي قد سرق الحركة الوطنية من المسلمين ولقد دفعه الى هذا السفر والبحث وتحمل الجهد ما اذيع اذ ذاك من ان المنبوذين في الهند يتجهون الى ترك الديانة الهندوكية ولذلك فقد طاف باجزاء الهند متصلاً بالمنبوذين باحثاً معهم مشكلتهم ومقدماً لهم كل ما يسر لهم دخول الاسلام .

وفي مصر كانت مهمته الكبرى هو اصدار اعلان جامع بالدعوة الى اقامة ثقافة اسلامية عربية خالصة متحررة من النفوذ الاجنبي وكان يعمل معه في هذه الدعوة لطفي جمعة ومنصور فهمي وعدد من المثقفين وكان في الآخر داعية انشاء عصبة امم اسلامية .

البَاب الثاني

أعمالــه ونضالــه

أولاً : قضية تحرير تونس .

ثانياً : نهضة العرب .

ثالثاً : بناء ثقافة اسلامية عربية .

كان عمل الثعالبي واسعاً ومتعدداً فلم يكن قاصراً على العمل الوطني وحده ، بل ان العمل الوطني الذي اداره الثعالبي كان يتحرك به في دائرة اسلامية جامعة ولا يقتصر على ما يسمى بالعمل السياسي وحده ، وعندما هاجر من تونس الى العالم الاسلامي ركز كثيراً على العمل الاسلامي الثقافي الكبير الذي يحرر الجماعة الاسلامية كلها من النفوذ الاجنبي ومن الغزو الثقافي .

ويمكن القول بان الثعالبي عمل في ميادين مختلفة منها قضية تونس ومنها نهضة العرب ومنها قضية الثعالبي الاسلامية .

الفصل الأول

قضية تحرير تونس

كانت القضية الاولى في جهاد الثعالبي هي تحرير تونس من النفوذ الاجنبي . ولم يكن الثعالبي الا امتداداً لجده عبد الرحمن ولم تكن قضية تونس الا امتداداً لقضية الجزائر فقد كان الاستعمار الفرنسي قد خطط للسيطرة على شمال افريقيا وبدأ بالجزائر ١٨٣٠ وثنى بتونس ١٨٨١ وكانت حركة الاصلاح واليقظة والمقاومة قد بدأت منذ وقت بعيد وكان الثعالبي في هذه الخطة مسبوقاً بخير الدين ومحمود قابادو في البحث عن حلول لمواجهة الغزو الاستعماري والحضارة الغربية . وبعد الشيخ محمود قابادو كان الشيخ الثعالبي هو الذي كون المذهب الفكري الجديد الذي ساد الحياة العقلية والتي نشأت عليه اجيال المجاهدين والعاملين في سبيل مقاومة النفوذ الاجنبي .

كانت تونس حين الاحتلال دولة متقدمة ، لها منظمات

واسعة للجيش ، وبها مدرسة حربية ومصانع للأسلحة والذخيرة ودار لصناعة السفن ، وقد صدر لها دستور حديث سمي عهد الامان ١٠ سبتمبر ١٨٥٨ وفي عهد الصادق باي ووزيره خير الدين تم تعديل هذا الدستور ١٨٦١ وفقاً لمبدأ فصل السلطات واقامة النظام البرلماني وتأسيس مجلس تشريعي له سلطة واسعة .

ومن ثم فان احتلال تونس كان محاولة لتدمير هذه النهضة والادعاء بان البلاد متأخرة ومدينة له حتى يُبرر سيطرته عليها ومن ثم فقد حول الاحتلال الفرنسي تونس عن خطواتها وبدأ بتحويل مناهجها التعليمية وضرب اللغة العربية ودراسات الاسلام والتاريخ لتحويلها الى السيطرة الفكرية الفرنسية وهذا هو الذي كان الثعالبي يردده لا يتوقف ولا يكف في كل مكان كاشفا اكذوبة فرنسا ودعواها الباطلة ، وهذا هو الذي ازعج فرنسا فطاردته فاخرجه من تونس ومن فرنسا ومن كل بلد يصل إليه .

والمعروف ان النفوذ الفرنسي حاول السيطرة على تونس منذ احتلال الجزائر ١٨٣٠ متدخلاً في الشؤون الداخلية ووضع العراقيل في سبيل النهوض ، بل ان فرنسا ـ كما يقول الدكتور الحبيب ثامر في كتابه هذه تونس ـ قد حملت تونس على اخذ

قروض من اوروبا بقصد زعزعة اركان الحكم في البلاد مما ادى الى فرض ضرائب جديدة مرهقة للشعب وذلك للتمهيد على السيطرة على تونس على النحو الذي فعلته بريطانيا في مصر في عهد اسماعيل ومن ثم زحفت الجيوش الفرنسية من الجزائر بدون سابق انذار على القطر التونسي بينما نزلت قوات اخرى من البحر من ميناء بنزرت ومنطقة طبرقة ووصلت القوات الفرنسية في ١٢ مايو ١٨٨١ بلدة منوبة وحوصر الباي في قصره (بباردو) وعرض عليه قائد الجيش الفرنسي معاهدة باردو واجبر على توقيعها غير ان الشعب التونسي قد واجه هذا الاحتلال بالثورات التي شملت جميع انحاء البلاد . ودارت المعارك الطاحنة في القيروان وسوسة وقابس والقلعة الصغيرة وزغوان وتستور ودمرت صفاقس تدميراً شديداً واستمرت المعارك في الجنوب حتى عام ١٩١٠ .

ثم تطورت المقاومة المسلحة ضد العدوان الفرنسي الى الكفاح السياسي في ضوء هذه الثورة ولد الثعالبي ونشأ حيث ظهرت الحركة الوطنية على ايدي محمد السنوسي والبشير صفر الذي يعتبر بحق ابا النهضة التونسية الحديثة والذي قام بزرع بذور الوعي بين الشباب التونسي وابرز اعماله محاضراته في معهد ابن خلدون في عاصمة تونس، ثم تركزت المقاومة تحت زعامة

علي باشى حانبه وقد التف حول هذه الحملة الشباب التونسي ولمع عبد العزيز الثعالبي الى جوار علي باش حانبه مشاركاً في العمل الوطني والصحافة حتى حدثت ثورة ١٩١١ في تونس على اثر محاولة السلطة الفرنسية الاستيلاء على مقبرة الجلاز الاسلامية في عاصمة تونس وقد حملت السلطة الفرنسية جماعة علي باش حانبه مسؤولية هذه الحوادث فعطلت جريدة التونسي واعلنت الاحكام العرفية في البلاد وبقيت تونس تحت الحكم العسكري القاسي منذ ذلك التاريخ الى عام ١٩٢٢ .

وعلى إثر هذه الحوادث نفي رجال حركة باش حانبه الى الخارج فانتقلوا الى فرنسا ثم الآستانة والهند أما الشيخ الثعالبي فقد عاد الى تونس ١٩١٤ بعد إلغاء قرار الابعاد وبقي بها طيلة الحرب العالمية الأولى .

وفي باريس كان عبد العزيز الثعالبي يحمل لواء العمل لمواجهة المشتركين في مؤتمر الصلح فقدم الى الرئيس ولسون اوائل ١٩١٩ بياناً باسم الشعب التونسي طالب فيه باستقلال بلاده ولم يلبث ان اصدر كتابه الشهر تونس الشهيدة الذي فضح فيه الاستعمار الفرنسي وبين حق بلاده في الحرية والاستقلال .

وبينما كان الثعالبي يدافع عن حقوق تونس في باريس قام انصاره ١٩١٩ بتأسيس الحزب الحر الدستوري التونسي وتقدموا

الى الملك يطلبون اعلان الدستور واعلنت الحركة برنامجها الذي يسعى الى اعادة السلطة الى اصحاب البلاد الاصليين ، وعمل رجال الحزب وقتذاك للتفاهم مع فرنسا وإقناعها بوجوب ارضاء رغبات الشعب التونسي وانتشرت حركة الحزب انتشاراً سريعاً وصارت له فروع واصبح قوة شعبية ، وقد القت السلطات الفرنسية على اثر ذلك القبض على الثعالبي في باريس وارجعته الى تونس وقد الصقت به السلطة الفرنسية تهمة التآمر مع العدو واودعته السجن ولكن الشعب تحمس لقضية زعيمه وواصل ضغطه على السلطة الفرنسية فأطلقت سراحه وخرج من السجن وقاد بنفسه الحركة الوطنية .

ولقد كان الثعالبي عقبة في سبيل المخطط الخطير الذي كانت فرنسا بصدد عقده بعد الحرب العالمية الاولى وخاصة مؤامرة التجنيس الذي ارادت به ادخال مسلمي تونس في الجنسية الفرنسية ولذلك فقد ظلت تقسو عليه وتطارده ، وتعمل معه الحيلة حتى اضطرته الى الخروج الى الشرق حيث اقام متنقلاً بين اقطاره خلال أربعة عشر عاماً اقرت فيها كل ما ارادت في غيبته قيادة اصيلة تنظر الى القضية نظرة شاملة فلا يقتصر جهادها عند الجانب السياسي وحده وانما تواجه التحدي كله وخاصة في جوانبه الثقافية والتعليمية .

ولقد كانت فرنسا تخطط لعمليات تبشير خطيرة كان على قمتها المؤتمر الأفخارستي الذي عقد ١٩٣٠ في تونس احتفالاً بمرور خمسين سنة على معاهدة باردو .

ومع ذلك فقد هبت تونس لمقاومة حركة التجنيس ولمؤتمر الافخارستي مقاومة شديدة ولقد كان مفهوم الثعالبي للعمل الوطني اسلامياً : فالعمل لتحرير البلاد من المستعمر جزء من رسالة الدعوة الاسلامية الى الحرية وقيام بنهج الاسلام في بناء المجتمع . ولذلك فقد كان معارضاً للنفوذ الفرنسي ، المسيطر على اجهزة الحكم وكانت اقوى صيحاته تهدف الى تحوير التعليم ولذلك فان اشد حملاته كانت حين جرأت السلطة الفرنسية على جعل اللغة الفرنسية هي اللغة الاولى في برامج المدارس الابتدائية وجعل اللغة العربية لغة ثانوية ولقد كان الثعالبي حريصاً على ان يكشف حقيقة كبرى حاول الاستعمار اخفاءها ودحرها وهي ان تونس قبل الاستعمار كانت على قدر كبير من النهضة والتقدم فقد كان بها نظام سياسي دستوري تقدمي في مختلف مجالات التعليم والثقافة والاجتماع، هذا الوجه الذي انكره الاستعمار الفرنسي واخفاه وحاول ان يصور تونس بأنها بلد متأخر في حاجة الى وصاية من دولة متمدنة لدفعه الى الامام وكان في ذلك مضللاً وبعيداً عن الحقيقة ، وهذه هي

القضية الكبرى التي حاول الثعالبي ان يرددها ويكشفها امام العالم كله بكتاباته في مصر والعراق وزياراته لمختلف اقطار العالم العربي والاسلامي ولقد كشف الثعالبي للعالم الاسلامي عن طريق الصحافة العربية مؤامرة التجنيس في تونس حين شن حملاته المتوالية في صحف مصر وغيرها حيث يقول :

« ليس التجنيس الا حلقة من سلسلة طويلة تقدمتها حلقات السياسة التقليدية التي تجري عليها اوروبا للقضاء على الكيان الاسلامي وفي الطليعة فرنسا فهي تريد اختصار الوقت وانتهاز الفرص في سياستها الافريقية حتى تتمكن في بضع عشر سنة من عمل ما لم تستطعه الدول الأخرى في مئات السنين ويعتقد الفرنسيون ان اقطار شمال افريقيا كانت قبل الاسلام نصرانية خاضعة للكنيسة الكاثوليكية ولما جاء الاسلام عربها وجعلها أمة مسلمة متممة للوحدة الاسلامية العامة في اقل من قرن فكيف يعجز عن مثل ذلك في تحويل هذه البلاد الى النصرانية في وقت اقل مما اقتضاه الاسلام في التحويل » .

قال الاب بونس : يجب على فرنسا اذا شاءت ان يدوم نفوذها وترسخ قدمها في هذه الاقطار ان تنصر اهالي شمالي افريقية وتقول صحيفة (لاتونيزي فرانسيز) : «ان الحروب

الصليبية لم تكن جواباً الا على هجمات الاسلام المتوالية على الكاثوليكية فلو ان العرب قبعوا في جزيرتهم لما وقعت حروب صليبية وليس الكاثوليك هم الذين ساقوا العرب ودفعوهم الى مهاجمة فلسطين ومصر وافريقية الشمالية واسبانيا الى بواتيه بل ان هناك اشياعاً لمحمد خرجوا للاستيلاء على العالم وسيوفهم بأيديهم ولكن هؤلاء الغزاة من العرب قليلو العدد بالنسبة لسكان الاقطار التي انهالوا عليها وما كان لولا الاكراه في الدين ان تستقر قدمهم في افريقيا . وان مسلمي افريقيا كان اوائلهم من المسيحيين الذين يعمرون كنائس افريقيا وانهم هم احفاد اولئك المسلمين القدماء . هم المسلمون الذين يعمرون اليوم افريقيا الشمالية على نسبة تسعين في المائة على الاقل من مجموعهم » .

بهذا المدخل المضلل الماكر يريد الفرنسيون القول بأن الاسلام دخيل وان المسيحية لها سابقة وهذا غير صحيح في النظرة الصادقة الاصيلة وهذا ما حاول الاستاذ الثعالبي الكشف عنه وتصحيح هذه الشبهات الباطلة المسمومة .

فقد اعلن ان كل هذه الدعاوى باطلة وان اهل تونس اليوم هم احفاد اهلها القدامى العرب الاصلاء . ولقد قرأ الثعالبي كل

ما كتب عن شمال أفريقيا بجميع الألسن تقريباً ووعت ذاكرته أمجاد قومه الماضية ورأى [كما يعبر عن ذلك محمد صبيح في بحثه بمجلة الرابطة العربية (م ٢ ـ ١٩٢٧)] إن أولئك الذين اسسوا ملكاً ضخماً على دعائـم من الحضارة الذهنية والمادية ليسوا منقطعي الصلة بابنائهم الذين يسكنون اليوم اراضيهم ويتسمون باسمائهم ، ويعيشون بدمائهم ويرثون تاريخهم. وهو لكي تعيد هذا التاريخ سيرته الاولى يريد ان تبدأ من اول الطريق فيشعل في نفس قومه (من حدود طـرابلس الى المحيط الاطلنطي) حمـية قومية وانفة وكبرياء ثم يبدأ الطريق من اوله فيدرس اقتصاديات البلاد وحالتها الاجتماعية دراسة وافية ثم يشرع في العمل على صد الغارات التي يوجهها الغرب الى ثروات البلاد فيدعم الاقتصاد القومي ويدرس الى جانب هذا حالة البلاد البكر وأخلاق أفرادها ونظم طبقاتها. وان طريقه في خدمة بلاده ترمي الى انهاضها من كل ناحية والى تدعيم هذه النهضة بأسس من العقيدة الدينية والنظم الاقتصادية والعلم والاخلاق » .

ولعل الثعالبي كان في مقدمة زعماء المسلمين في هذه الفترة الذي اتخذ طريق البحث الاجتماعي والاقتصادي للأمة العربية وللبلاد الاسلامية ولتونس في عشرات من البحوث التي

نشرها في الصحف ابان هذه المرحلة .

وقد كشف الثعالبي عن مدى سيطرة الاستعمار الفرنسي على اراضي تونس وثروتها فقال ان مساحة الأرض التونسية تبلغ ٩ ملايين هكتار منها مليون جبال ومليون ونصف غابات واحراش ومليون غير صالح للزراعة ونحو خمسة ملايين ونصف صالحة للزراعة وقد انتقلت اكثر تلك المساحة الى ايدي الاجانب .

كذلك فقد استولى النفوذ الفرنسي على مناجم الفوسفات ومناجم الرصاص والكلومين والحديد والفحم الحجري والفضة واستنزف خيراتها .

وقال : ان الروح الاستعمارية غالبة على فرنسا ولكن الشعب التونسي مصمم على ان يشتري حريته بكل ثمن وهو لا يبخل بتقديم دمه واكبر الدليل على ذلك الضحايا التي يقدمها الى المنافي والسجون .

ويدحض الثعالبي دعوى الاستعمار الفرنسي أن أهل المغرب من اصل غربي ويؤكد عروبة التونسيين والمغاربة فيقول ان خميرة الامة الافريقية هم من الفينيقيين وهم بلا شك عرب اقحاح وقد كانوا امة تجارة وسياحة ترتاد اساطيلهم الشواطىء للبحث عن الاسواق ، ولكن تاريخ الاتصال الرسمي بين افريقيا

[وبلاد العرب الذي استقر وتشكل في البلاد سابق لهذا العهد ويرجع إلى ثلاثة آلاف سنة في أفـواج لا انقطاع لها من الجزيرة تخرج الى افريقيا مجتازة شاطىء البحـر الأحمر وصحراء سينا ومنها ما كان يستـأنف رحلته حتى جبال الأطلسي. وهناك عنصر آخر كان ينحدر إلى شمال افريقيا من الناحية الشمالية عن طريق بلاد الغال واسبانيا وينتشر في جبال الأطلس ويتضح ان في البلاد من قديم العهود عنصرية عربية قوية كانت تغذيها الهجرات التي لم تنقطع اصلاً حتى جاء الفتح الاسلامي ، وكل ما صنع هذا الفتح أنه قلب نظام الحكم وجعله نظاماً اسلامياً عربياً وحد ادارة هذه البلاد وعدها مملكة واحدة شمالها وجنوبها ولم يمض وقت طويل حتى اعتنقت البلاد الاسلام واندمجت كلها في القومية العربية ، لهذا لا يستطيع المؤرخ مهما تجافى عن الحقائق العلمية ان يفصل شمال افريقيا عن الأمة العربية ولا يسعه الا ان يقول أنه جزء منها .

وقد وضع الثعالبي قواعد عامة لترشيد العمل الوطني والتحرر من نفوذ الاستعمار الفرنسي في مقدمتها الدعوة الى الاحتكام الى الكفاءة في الترشيح للوظائف الحكومية وفرض التعليم الاجباري وايجاد مجلس نيابي ثابت ينتخب عن طريق الاقتراع المباشر وله الحق في اقتراح القوانين والتصديق عليها

وتوزيع الاراضي الحكومية المعدة للاستغلال بنسبة متعادلة بين التونسيين والفرنسيين وحماية اليد العاملة وتنشيطها .

هذه القواعد التسع كما نسميها قدمها عام ١٩٢١ وصادفت كما يقول هوتي هوًى في نفوس جميع الطبقات فانضم الى الحزب التونسي جميع اصناف الناس ولم يبق في خارجه الا افراد في نفوسهم حزازات صبغوها بصبغة سياسية وشكلوا ما سموه حزب الاصلاح وقد اشتدت الحركة الوطنية وانتشرت على اساس المطالب التسع حتى بلغ عدد فروع الحزب الحر التونسي ٨٥ فرعاً .

ولكن نزعة الثعالبي كداعية اسلامي لا تقتصر على المجال السياسي والوطني فدعته الى الاهتمام بالثقافة والتعليم واعتبارهما أهم دعائم النهضة .

التعليم : اخطر التحديات

ولعل اخطر ما ركز عليه الثعالبي في جهاده هو التعليم وهذا يعطي لهذا الرجل تقديراً خاصاً يتميز به عن العاملين في حقل الوطنية والسياسة الذين يشغلون بأمور المفاوضات والمناورات ، اما هو فكان حريصاً على ان يحرر التعليم فهو منذ يومه الاول

يعرف هدف الاستعمار الفرنسي من السيطرة على التعليم وهو ما يسميه « امتصاص الذاتية التونسية واخراجها من صيغتها القومية والدينية وجعلها أمام الأمر الواقع فرنسية في كل شيء: «لغة وتفكيراً وديناً وتابعية والانوف راغمة » ولا ريب ان هذا من شأنه ان يفسح الطريق امام مدارس التبشير التي تقوم بها الارساليات المسيحية والانتقاص من روح الاسلام الذي يقولون عنه انه صلب عقول المسلمين وأبعدهم عن الامتزاج بالعناصر الأجنبية بحيث جعلهم ينفرون من التمدن الحديث .

ويتحدث الثعالبي عن التعليم الاستعماري في فصول طويلة نشرها في صحيفة السياسة المصرية وفي جريدة كوكب الشرق وعن الأخطار التي واجهت تونس نتيجة لتوسعه وسيطرته على «المدرسة» فيقول إن الاستعمار نشر لغته في البلاد وطفق يحدث لها مدرسة بعد اخرى ، تعجيلاً بقلب الامة المسلمة الى امة فرنسية وان جمعية نشر اللغة الفرنسية في باريس كانت تتلقى أنباء هذا الاقبال من الشعب التونسي على تعليم اللغة الفرنسية بمنتهى الاعجاب والتأميل وتنشر عنه التقارير المليئة بالآمال في هضم الروح التونسية وتكيل الثناء جزافاً على مسيري هذه الحركة في تونس من الفرنسيين .

كذلك اشار الى ان فرنسا عملت على وضع قاموس للغة

العامية وجعلته اساساً للتعليم في البلاد وشرع بالفعل في تدوينه وكذلك وضع تاريخ قومي لتونس يلحم اصرة الشعب التونسي بالفاتحين الأولين من الاوروبيين الرومان والفندال والبيزنطيين .

وذكر العرب بكل ما قيل عنهم من مثالب . وما اتهموا به ظلماً من الأضرار التي نكبت بها البلاد ثم آلت بها الى الانحطاط وإثبات أن الدول المحلية التي وجدت فيها كانت جادة في سياسة الانفصال عن الدول الاسلامية الكبرى المعروفة في تلك العهود .

وقال الثعالبي : ان سياسة التعليم الفرنسية لا ترمي الا الى ايجاد ايد عاملة لا الى ايجاد عقول مدبرة او ايد تنتج الثروة ، اما العقول التي تفهم وتدبر الثروة لاصحابها الحقيقيين فهذه يجب ان يضرب حولها نطاق من الجهل .

وقال الثعالبي : لقد ظهرت المدرسة الاحتلالية بعيدة عن المدرسة التونسية القديمة في ثوب اجنبي قشيب ، بناء فخم ، ومدير فرنسي واساتذة فرنسيون مع انه ليس فيها من العربية الا معلم الخط واسماء الطلبة وما عدا ذلك فكلها فرنسية من الرأس الى القدم ، وكل شيء مدرس بالفرنسية حتى التاريخ ، ولكن ماذا يدرس فيه : يدرس تاريخ فرنسا واوروبا وربما لا يسمع ان

لبلاده تاريخاً غير ما يتلقاه من المغامز عن العرب في صورة منفردة اذ يصورونهم له في صور بدو مخربين . هذا هو ما يتعلمه التونسي المغلوب على امره على حساب دافعي الضرائب من مواطنيه ولا تسل عن النفقات الباهظة التي توفرها المعارف لهذه المدارس والأمة لا تجد في ذلك بأساً في سبيل التعليم الحديث واخراج نشء مثقف يتمكن من الكفاح الحر في ميدان الحياة ازاء العناصر الاجنبية المتوثبة على البلاد ولكن كيف كانت النتيجة بعد ان مضى جيل كامل على انشاء هذه المدارس هي بلا شك صفر على اليسار يملأ المنزلة الفارغة .

الفصل الثاني

نهضة العرب

أولى الأستاذ الثعالبي اهتماماً كبيراً للنهضة العربية وعمل على دعمها وتأليف القلوب حولها باعتبارها السناد الأكبر لحركة الحرية الوطنية ، ولأنها المنطلق الأكبر للوحدة الاسلامية وقد كان لهجرته الى البلاد العربية ومقامه في العراق ومصر اكبر الأثر في توسيع دائرة جهاده وتوجيهه الى العمل لنهضة الاقطار العربية كلها وتحريرها من اخطار النفوذ الأجنبي بها وله في ذلك كتابات متعددة وعميقة :

يقول للأمة العربية من ماضيها الفاخر ومجدها الباهر وموقعها الطبيعي الممتاز مقام عظيم يعرفه الدارسون لتاريخ العرب وجغرافية البلاد العربية ولكن يظهر أن العرب المتأخرين الذين جهلوا انفسهم لم يعنوا اقل عناية بهذه الدراسات بل جهلوها فاخلدوا الى الاستسلام والرضى بالهوان تاركين

للمستعمرين الغربيين ان يحلوا محلهم في كل ما له مساس ببلادهم ، والأمة العربية ذات عنصرية واحدة قوية قائمة على وحدة اللغة والدين والتاريخ والمصالح المشتركة يضاف الى ذلك عنصر حديث من عناصر التكوين الاجتماعي وهو عنصر التذمر والكراهية للطغيان الاستعماري ، كما انه لا يفصل بعض أقطارها عن بعض فاصل طبيعي أو عرقي سوى أوضاع سياسية ارغمت على قبولها ارغاماً لا صلة له بنفسيتها وقد يختلف قوة وضعفاً باختلاف مناطق النفوذ ودرجة تأثيره فيها ومهما بالغنا في تقدير أثره فانه ليس في قوته ان يحلل ما لديها من عقيدة متأصلة منها وهي « قدسية الذات العربية » ولست اظن أنه يوجد عربي بلغ ما بلغ من الاستخذاء يحترم هذه الأوضاع السياسية النابية .

وقد كتب الثعالبي هذا في الوقت الذي كانت البلاد العربية منساقة الى تيارات خطيرة من الدعوة الى الأقليمية والفرعونية والفنيقية وغيرها من دعوات سلطها عليها المستعمر للحيلولة دون وحدتها والتقائها على أصولها الأصيلة . فكان بذلك رائداً في الدعوة الى الترابط العربي القائم على القيم الاسلامية شأنه في ذلك شأن شكيب ارسلان ورشيد رضا ومحب الدين الخطيب وغيرهم من مدرسة الاصالة واليقظة الاسلامية ويصور الوسيلة للنهضة فيقول : ان الوسيلة الوحيدة للاحياء والتجديد عند

العرب هو تفاهم العرب فيما بينهم بدون واسطة الحكومات على ما يضمن سلامتهم وتقدمهم والرجوع بهم الى نهضتهم الأولى .

ويمضي الثعالبي في تقنين هذه النهضة ورسم الطريق الصحيح اليها ويرى ان مصر لا بد ان تكون واسطة عقد هذه النهضة باعتبارها مركز الثقافتين العربية والاسلامية ويرى ان الوقت قد حان (١٩٣٦) للعمل لايجاد كيان الوحدة العربية وان من الضروري لتحقيق ذلك : (اولاً) العناية بدراسة تاريخنا وأدبنا والبحث عن العناصر الخفية التي اجتمعت لدين الاسلام وشعب الجزيرة ولسان العرب وتمكنت من هضم شعوبٍ بأسرها واحالتها الى طبيعتها وفي اسباب هذه المرونة وخفاياها التي لم تتوفر لشعب من الشعوب .

(ثانياً) الكشف عن أمجاد تاريخنا وفلسفة نشوئنا القومي بما يستتبع العمل على توحيد مصادر الثقافة في البلدان العربية على أساس :

١ ـ التعاون الاقتصادي ٢ ـ ارتياد البلاد العربية ٣ ـ الرابطة العلمية .

اما التعاون الاقتصادي فيتم بالبحث عن مصادر المواد

الأولية والعمل على استهلاكها ضمن نطاقنا القومي الكبير ، كذلك فان على شباب مصر المثقف ان يرتاد البلاد العربية لدراسة منقبة تعمل على معرفة حقائق الحياة الاقتصادية ، وتنمية الرابطة العلمية .

ويقول : ان على الشباب ان يدرك ما ورد في الذكر الحكيم من ان الله جعلنا امة وسطاً لتكون شهداء على الناس وما في هذا التنبيه الالهي من شارات جغرافية الى مركزنا في العمل بكوننا صلة الوصل بين الشرق والغرب طرداً وعكساً ويتحدث الثعالبي عن حضارة العرب قبل الاسلام فيقول انها لم تبحث ولم تعرف على وجهها الصحيح ، فقد انصبت الدراسات الأولى للعصر الجاهلي على الحياة البدوية في صحارى نجد لقربها من الكوفة موطن العلم والتدوين يومئذ فنقل شعر البادية باعتبار انه صورة لحياة عرب الصحراء ولكن الحياة الحضرية بما فيها من شعر ونثر ولغة حديث اهملت تماماً فلم يصل الرواة الى موطن الاستقرار في الحجاز فقد تضمن القرآن مسميات لكثير من ادوات الحضارة ومعدات الترف ووصف الجمال والخدور والمقاصير بما فيها من كواعب أترابٍ ففيما نجد هذا وامثاله في القران نجد الشعر والأدب لا يحوي شيئاً منه مع ان الشعر اداة نقل هذه المظاهر للحياة والعمران .

ويؤكد الثعالبي في احاديث متعددة متوالية نشرها في صحف مصر وغيرها من البلاد العربية ان نهضة العرب : ضرورة لسلام العالم وانقاذه من مشاكله .

ويقول : ان نظرة واحدة يلقيها عرب اليوم على المصور الجغرافي تكفي لادراك المنزلة العظيمة التي لبلادهم في الممالك والاقطار ، ففي البلاد العربية تلتقي خطوط المواصلات العالمية براً وبحراً وجواً وهي معبر الشرق الى الغرب وطريق الغرب الى الشرق ، ومن هذه الناحية كانت ذات مركز ممتاز في نظر الساسة وقواد الحروب قديماً وحديثاً ، وهذا المركز الممتاز خولها فيما سلف من الأحقاب حق السيادة على العالم كما خولها اياه اليوم والى ما شاء الله ما دامت الأمم محتاجة الى تبادل المنافع والى التعاون الاقتصادي ومن فضول القول تكلف الدلائل على اثبات هذه الحقيقة الناصعة التي لا يصح الجدل فيها .

ويقول انه لا ينقص الأمم التي تكون لها هذه المواقع البحرية شيء من وسائل التغلب الا العلم والتكاثر . والعرب بحمد الله كثيرون يملأون اطراف القارتين : اسيا وافريقية وهي موطن المدنيات وملتقى الحضارات ولها فوق

ذلك من المميزات والخصائص القومية ما يجعلها في عصام من الاندماج في الأمم التي مرت بها فهي ذات وحدة عنصرية قوية قائمة على وحدة اللغة والدين والتاريخ والمصالح المشتركة يضاف الى ذلك عنصر حديث من عناصر التكوين الاجتماعي وهو عنصر التذمر والكراهية لطغيان الاستعمار كما انه لا يفصل بعض اقطارها عن بعض فاصل طبيعي أو عرقي سوى اوضاع سياسية ارغمت على قبولها ارغاماً لا صلة له بنفسيتها . ومهما بالغنا في تقدير أثره فانه ليس في قوته ان يحلل ما لديها من عقيدة متأصلة فيها وهي (قدسية الذات العربية) .

ويقول : على كل عربي يشغل فراغاً في محيط هذه الأمة ان يشعر بالمنزلة العظيمة التي لامته في هذا العالم وان يتنبه للمكائد التي ندبها لها هنا وهناك لاعاقتها عن السير في الحياة وتجزئة اقطارها وصرفها عن ادراك حقوقها . ولو انصف هؤلاء لادركوا ان نهضة العرب ضرورية لسلامة العالم وانقاذه من المشاكل التي تعصف فيه بسبب التكالب على استعمار بلادهم . ولن يكفل سلام العالم الاتفاق بين هذه العناصر ما لم يكن للعرب ضلع فيه لأن لهذه العناصر مواقع محلية متأقلمة لا تشرف منها على العالم بعكس مواطن العرب الواقعة على ملتقى خطوط المواصلات الكبيرة .

الحنين الى تجديد عهد مدنيته العظيمة وهي ميراثه الغالي واثر قرائح اجداده ومن السخافة القول بمنابذتها أو تكليف الطامح الغربي بانتقاء ما يصلح لنا منها وهو جاهد في تحطيمها وصرفنا عنها وان نكل الى خصوم نهضتنا تدبير أمرها ويدعو الثعالبي الى تحرير عقائدنا وآرائنا وعواطفنا من نير أوربا وأمريكا بانشاء مثل عليا جديدة لا تقل استهواء ولا اغراء عن تلكم المثل الزائفة التي احتلت اذهاننا واستولت على اقلامنا .

ويقول في هذا : نريد ان نهدم من حول آداب الغرب هذه القداسة التي شادتها الدعاية الكاذبة حتى نراها على حقيقتها تفسد الجسد العادي وتستبيح من الفكر ما لا يستباح عندنا وتصور من العقائد الهدامة ما لا حاجة لنا به .

ويقول : ان الوسيلة الوحيدة للاحياء والتجديد عند العرب هو تفاهم العرب فيما بينهم بغير واسطة الحكومات على ما يضمن سلامهم وتقدمهم والرجوع بهم الى نهضتهم الأولى .

ولا ريب ان هذه النصوص تكشف عن عمق نظرة الثعالبي الى الأمور العالمية والعربية ومعرفة بالتحديات التي تواجه العرب والمسلمين .

ويركز الثعالبي على الدور الذي يمكن ان يقوم به العرب اذا نهضوا فتقرر ان الأمم التي تكون لها هذه المواقع البحرية لا ينقصها من وسائل التغلب الا العلم والتكاثر والعرب بحمد الله كثيرون في أقطارهم يملأون أطراف القارتين اسيا وافريقيا وبلادهم تمتد من تخوم البلخوستان الى ضفاف البحر الأخضر (المحيط الاطلانطيقي) وتعدادهم يبلغ قرابة مائة مليون نسمة وفي بلادهم من موارد الخامات وينابيع الثروة ما لا يوجد في الأقطار أقطار أخرى .

ويدعو الثعالبي في سبيل دعم هذه النهضة : الضرورية لسلام العالم وانقاذه من مشاكله ، الى العمل على توثيق حاضر الأمة بماضيها : ويقول ان العربي اينما كان لم يبلغ به الانصراف عن التفكير في المستقبل الى فقدان الشعور بالعزة أو

الفصل الثالث

بناء ثقافة اسلامية عربية

حمل الأستاذ الثعالبي لواء العمل في مصر للدعوة الى الاصالة بالمعنى الحديث الذي نردده اليوم ، وهو ما اسماه بناء ثقافة اسلامية عربية لها ذاتيتها الخاصة ، ولقد كان ذلك هو الشغل الشاغل له في اتصالاته الثقافية في مصر مع اعضاء جمعية الشبان المسلمين واساتذة الجامعة ورجال الأزهـر ورجال الصحافة .

وقد وصف الدكتور منصور فهمي هذه الدعوة بقوله :

إن للثعالبي رسالة جديدة الى امته وهي أن لا تكون في مدنيتها الحديثة ذيلا لمدنية الغرب وان تقتصر في ثقافتها على التقليد وقد كان للعرب رسالة في الماضي فيجب أن يكون لهم

رسالة في الحاضر والمستقبل وقد طغت علينا الثقافة الغربية حتى كادت تجردنا من قوميتنا وشخصيتنا وذاتيتنا .

وقال منصور فهمي : ان تجاربه الطويلة اقنعته بان الدعوة الى الثقافة الغربية خطأ وانه يجب ان يكون لنا نحن العرب والمسلمين شخصية ذاتية نستطيع ان نحقق بها آمالنا ونؤسس عن طريقها مجدنا .

ويرى الثعالبي (الرابطة العربية م ١٩٣٦) ان مصر هي التي ينبغي ان تستقر فيها اولا الدعوة الى هذه الثقافة المتحررة من النفوذ الاجنبي .

ويقول ان استرجاع العز الماضي هو أملي لا في الاقتصاديين ولا في السياسيين وانما هو في الأساتذة لانهم هم الذين يعول عليهم وهم الذين نبني امالنا على جهودهم ، فاذا اخلصوا وسعوا في تكوين ثقافة عربية اسلامية حديثة تناسب الامم الاسلامية فلا مشاحة في الاصلاح فالاسلام لم يكن عقيدة فقط بل هو نظام اجتماعي كامل للحضارة والثقافة والفكر ولا يمكن لغير العرب ان يتضافروا على حفظ هذه المدنية .

ويقدم منهج الثعالبي في العمل الثقافي كما يصوره الأستاذ

محمد الفاضل بن عاشور على ان مصدر التوجيه فيه هو الدين الاسلامي وان الدين قوامه العلم والاخلاق ووسيلة نشره الدعوة والتناصح وان من حق الدعوة الاقدام في سبيلها والاستخفاف بما يتعرض اليه القائم بها من متاعب أو يناله من إرهاق وان أمر المسلمين قد استمر منتظماً طالما كان أصل الدعوة وهم العلماء قائمين بواجبها فلما قصروا فيها اختل أمر المسلمين وطغت عليهم الامراض الاجتماعية وقامت امم اوروبا تنازعهم السيادة . وان « تونس » ليست الا جزءاً من ذلك الهيكل الاسلامي الشرقي ، تداولت عليها اطوار السعادة والشقاء كما تداولت على سائر الشرق الاسلامي وان دعوة ظهرت في الشرق الاسلامي ترمي الى اصلاح شأنه بتحديد ما كان سببا في سعادته الأولى فاصطدمت هذه الدعوة بعدوين : هما الجاحدون من ابناء البلاد والمستعمرون من الدخلاء عليها ودخلت في الكفاح على وجههما معا . وان مصر مستقر هذه الدعوة وعنها تلقى رجال الاصلاح في تونس دعوتهم وعلى مثالها سيروا كفاحهم فاعتمدوا كما اعتمدت هي ، على الجرائد والمجلات ، في تلك ينشرون الدعوة وفي هذه يحررون الحجة » .

ونصل من هذا كله الى هدف اكبر للاستاذ الثعالبي ذلك هو دعوته الى الفكرة الاسلامية الجامعة .

فقد كان من أكبر اعمال الثعالبي الدعوة الى : (انشاء عصبة الأمم الشرقية): وقد جاء ذلك بعد أن خيبت ظنه الدول الاوروبية حين سعى اليها في مؤتمر الصلح يطلب تحرير وطنه ورأى كيف تقف الدول الاوروبية الاستعمارية من صيحة الدول العربية المطالبة بالحرية والاستقلال .

وقد اصلى حكومة فرنسا ناراً محرقة في كتابه عن تونس ضمنه فضائح الحكم الفرنسي في بلاده الذي كتبه ابان مؤتمر السلام ودعا الى التأليف بين قلوب المسلمين من مصريين وتونسيين ومراكشيين وجزائريين وطرابلسيين وهنود واذربيجان وقوقازيين وسوريين وفلسطينيين لوضع اسس تعاون وتقارب بين بلاد الشرق الاسلامي .

وقد وصف الاستاذ محمود ابو الفتح (جريدة السياسة المصرية ١٩٢٦/٥/١٦) الأستاذ الثعالبي فقال: ان مكانته في تونس هي مكانة سعد زغلول في مصر وانني لا انسى الثعالبي في باريس عام ١٩١٩ في عاصمة فرنسا يثير الارض والسماء على فرنسا في تحرير تونس . يثير احرار الفرنسيين على سياسة الاستعباد . وقد اخرج كتابا اسمه تونس الشهيدة ضمنه فضائح الحكم الفرنسي في بلاده وكان لهذا الكتاب ضجة كبرى وزعه مجاناً على كل نائب وشيخ ومشتغل بالسياسة في فرنسا ولما اثار

الدنيا على فرنسا اخذته من داره الى السجن والنفي وقد اصم مؤتمر السلام في باريس اذنه عن كل صوت ارتفع من الشرق واقفل بابه امام كل وفد من الشرق » .

ويقول الثعالبي ان على الشرق ان يتنبه لنفسه ويكافح لاجل أن يتخلص من نير الاستعمار فتفهم اوروبا ان لنا ارادة وثقوا ان الأوروبيين لا يعارضون حركتنا هذه الا اذا رأونا أذلة صاغرين نتزلف اليهم اما اذا رأوا ارادة قوية وعزيمة وثابة لا تضل فثقوا انهم يصغرون امام قوة الارادة . وعار ان تبقى امة في العالم تستنصف القساة ولا تجد من ينصفها مع انها قادرة على انصاف نفسها بنفسها » .

ثم يصور الثعالبي الوسيلة الى الوحدة الجامعة فيركز على اصلاح النفوس يقول : فعلى الشرقيين اذا ارادوا ان يسعدوا ان يعتمدوا قبل كل شيء إصلاح النفوس ومتى أصلحوها وثقفوها اصلحوا الشرق وهي لا يصلحها غير العلم الناضج والتربية الصحيحة . ولست اقول بالطفرة ولا اطلب المحال ولا اريد الناس على عمل لا يقدرون عليه وانما ادعوهم الى العمل الممكن الميسور الذي لا يخزيهم ، ادعوهم الى التفكير في الامور والاتفاق في العمل والتوسع في الاستنتاج ، ادعوهم الى التجول والانتقال من الاعمال الفردية الى الجهود الجماعية

واحداث النظم لها والمؤسسات اذ ليس في مستطاع فرد مهما أوتي من القوة والبأس والذكاء أن يتقن ويستثمر عملاً ما لم يقترن سعيه بجهود الآخرين فان تكافح الاقوياء في هذا العصر لم يقم على الافراد بل على جهود الجماعات والسبب في هزائمنا المتوالية نحن معاشر الشرقيين هو اعتمادنا على مكافحة الفرد وذلك ما جعلنا ننهزم في الصدمة الاولى ، من معترك الحياة امام الاجانب فهم يكافحوننا بالنظم والشركات والاحزاب المتناصرة ، وقوة الأمم تخرج من بين صلب وترائب هذه الوحدات لا من بين الحب الافلاطوني والخيال الموهوم .

فإن الشرق لم يزل مشرق العظائم والكمالات والنور ففيه نزل الوحي الالهي على الصفوة من خلقه ، وفيه اينعت افنان المدنيات ولولاه ما ادرك الغرب الفضيلة ولا عرف الاديان ؛ ولا الفلسفة ، ولا بلغ مبلغه من المدنية والعمران الم تكن مصادر المدنية الغربية شرقية ومن عمل الشرق ، ونحن ان نسينا فلن ينسى الغربيون ان المسيحية هداية شرقية محضة وهي والاسلامية واليهودية نبعة واحدة يفيض بها الروح الامين على اقحاح الساميين من قلب البلاد العربية ، ولكن مهما تصورنا عظمة الشرق وبالغنا في وصف جماله وجلاله فاننا لا نستطيع المكابرة في الحق وانتظار تفوق الغرب عليه في عمله ونظمه وفي

قوته فقد استيقظ الغرب في الساعة الاخيرة التي غفا فيها الشرق فبزه .

واذا اردنا ان نعيد الشرق الى منزلته الاولى من التقدم وجب علينا أن نقتبس من الغرب كل جديد تجمل به ولننبذ كل قديم رث بال عفاه الدهر وقتلته العصور فان الحياة كون خاضع لناموس التغير والتجدد ، ولا يخلق بهما ابدا الرفو والترقيع وكفانا ان نحتفظ من ماضينا بالدين والاخلاق وما عداهما فالى البوار والى الدمار » .

وهكذا نجد ان الاستاذ الثعالبي عمل في الميادين الثلاثة المتداخلة ، الميدان الوطني والعربي والاسلامي الجامع وان وجهته في العمل كانت على نفس الطريق الذي سلكته حركة اليقظة الاسلامية منذ بدايتها : طريق الاصالة الجامعة التي رأت في اسلوب العمل الوطني مدخلا الى التحرر من النفوذ الاجنبي ومنطلقا الى التقاء العرب تحت لواء الاسلام وبناء ثقافة اسلامية اصيلة جامعة .

وهو نفس الطريق الذي سار فيه المجاهدون في مختلف انحاء العالم الاسلامي وخاصة تلك المدرسة التي تواصلت على الطريق تحت اسم دعوة التوحيد وتحرير العقيدة الاسلامية .

الباب الثالث

الرحلة الى الآفاق

اولاً : الرحلة الى الافاق

ثانياً : قضايا العالم الاسلامي : المدرسة والاقتصاد

ثالثاً : قضية المنبوذين في الهند

رابعاً : رحلته الى العراق

الامام الثعالبي في بغداد : محمد بهجت الأثري

الثعالبي التونسي في بغداد : محمود العبطة

الفصل الأول

الرحلة الى الآفاق

تكاد تكون حياة الثعالبي كلها منذ ١٨٩٧ الى ١٩٣٧ رحلة متصلة خلال اربعين عاماً كاملة ، وهي حياة شاقة فيها الاعتقال والنفي والهجرة ، هو خلالها دائب على التجوال ليتعرف الى احوال المسلمين في كل مكان وتبليغ صوت تونس الحرة الى كل صقع ذهب الى اوروبا فطاف بها ثم الى الشرق العربي ، ثم مضى الى سيلان ومدراس في الهند والملايو وسنغافورة وسيام وجاوة والفيليبين ووصل الى شنغهاي في الصين وكانت رحلته الاخيرة عام ١٩٣٣ اشد هذه الرحلات مشقة اذ ذهب من البحر الاحمر الى الهند فسنغافورة ومانلا وهونكنج فالصين .

وقد درس في رحلاته حالة الشعوب الاسلامية دراسة عالم محقق ، من اكبر العاملين في مجال السياسة الاسلامية العامة .

وقد توالت رحلاته ١٨٩٧ (طرابلس ـ مصر ـ الاستانة)
و١٩١٢ ـ ١٩١٤ (فرنسا ـ الاستانة ـ الهند ـ اندونيسيا)
و١٩١٩ ـ ١٩٢٠ اوروبا (ايطاليا ـ فرنسا ـ سويسرة ـ بلجيكا)
ورحلته الرابعة إلى المشرق ١٩٢٣ التي امتدت الى ١٩٣٧ ومن
خلالها كانت رحلاته الى الهند والصين والاقامة في العراق
ومصر .

وتروي الاهرام في ١٩٣٤/٥/٢٤ لمحة عن احدى هذه
الرحلات فتقول :

سافر من مصر الى عدن ـ بورسودان ـ مصوع ـ اقام بعدن
لتأسيس نادي الأدب العربي في عدن ـ وفي الهند وجد
الاضطرابات واحتلال الاحزاب وفي بورما وجد الروح الوطنية
قوية ، معارك بين البورميين والصين ، وبين البورميين
والهندوس ، وفي الصين وجد النفوذ الاسلامي سائدا في جهات
شنغهاي وكانتن .

ويقول الاستاذ الثعالبي بعد عودته الى مصر من هذه
الرحلة :

زرت بورسودان ومصوع وعدن والمكلا وبربرة والهند الى
كلكتا وبورما وجزيرة فلغلان وهي واقعة على طرف بلاد
المضيق ، وهي نقطة متوسطة بين بورما وسيام وماليزيا ومنها

سافرت الى سنغافورة ، وكنت مزمعا مواصلة الرحلة الى الصين وسافرت فعلا على ظهر الباخرة الدانمركية وقد اخترتها دون غيرها مع انها باخرة نقالة لانها تمر باقطار عديدة يهمني ان اطلع عليها فهي تمر بمدينة هافانا عاصمة الفيليبين ثم تمر بثغر هنج كونج عاصمة الصين الاتحادية ومنها السفر بالقطار الى مدينة كانتون لزيارة مقام ابي وقاص الذي يزعم اخواننا الصينيون انه اوفد من قبل النبي لدعوة الصين الى الاسلام وبعد ان ركبت الباخرة وسارت في عرض البحر حدث في نفسي ما حملني على الاقلاع عن المضي في هذه الرحلة اذ وافاني البريد من تونس ينبهني الى الواجبات التي علي للوطن فاحدث ذلك اضطرابا في نفسي ضاعفه عدم عثوري على مترجم اعتمد عليه في هذه الرحلة فتفاهمت مع القبطان وعدت مع سفينة نقالة ثم عدت الى الهند ومنها الى مصر وقد اشار الكثيرون الى هذه الظاهرة في حياة الثعالبي وعدها بعضهم ابرز ظواهر حياته وقد اعطته قدراً ضخماً من التجربة والفهم لاحوال المسلمين على اوسع مدى ولقاء عشرات من الاعلام والزعماء والامراء واتساع افق الحديث معهم الى معضلات المسلمين. والثعالبي في هذه الرحلات دائب على عقد الاجتماعات في كل مكان : في الدور والمطاعم يتحدث عن احوال المسلمين ويجمع بينهم ويدعوهم الى

الوحدة والتأليف بين قلوبهم لوضع أسس تعاون وتقارب بين بلاد الاسلام وأهلها .

وقد تحدث الثعالبي عن رحلاته هذه في فصول مطولة نشرها في صحف مصر وقدم فيها عصارة تجربته وخبرته الواسعة ومن شأن هذه الاحاديث ان تسجل صورة العصر الذي عاشه واحوال المسلمين ابانها كما تلقي الضوء على سعة ادراك هذه الشخصية التي نؤرخ لها والتي بلغت في رحلاتها هذه ما لم يبلغه كثير من زعماء العالم الاسلامي في عصره او من قبله وهو يتحدث عن العراق فيقول :

العراق بلاد غنية لها مستقبل حسن اذا وجدت الايدي التي تساعد على استثمار منابع الثروة الغزيرة فيها فالعراق يصح ان يكون من خير مشاتي العالم متى مدت السكة من حيفا الى بغداد اذ يتيسر اقامة فنادق على شاطىء الفرات وجعل هذا الشاطىء قبلة السائحين الاوروبيين والامريكيين وقد درست بنفسي اجمل مشاتي العراق وهي المنطقة الممتدة من الهندية الى الكوفة حيث الحدائق والنخيل تمتد على ضفاف الفرات متطاولة متناسقة تنعكس صورها على ماء النهر فيرى الانسان منظراً من ابدع المناظر لم ير له مثل الا على شواطىء سومطرة وجزائر البحر

الهندي ويجد السائحون في فصل الشتاء هناك ربيعاً ويمتد من ديسمبر الى مارس .

وقد زار الثعالبي مختلف الامارات والسلطنات في جزيرة العرب وتحدث عنها قال ان الاهالي هناك يشعرون بالحاجة الى العلم وقد اسست عدة مدارس على نمط حديث ومنها المدرسة السلطانية في مسقط ومدرسة المحسن الكبير ابن دلوك في دبي (غربي عمان) ومدرستان في البحرين واحدة في المنامة واخرى في المحـرق ونحو اربع مدارس في الكويت وكل هذه المدارس يقوم الاهالي بالانفاق عليها دون مساعدة الحكومة وفي البحرين والكويت عدة نواد ادبية تلقى فيها الخطب وتعقد الاجتماعات وهناك عدة مكاتب .

ان حركة التهذيب والتعليم اخذة في الانتشار في البلاد العربية وبعد ان كانت منقطعة عن العالم اصبحت تصل اليها جرائد مصر والعراق وفلسطين بل وجرائد تونس ايضا واذكر ان الناس في الخليج الفارسي كانوا يقرؤون اخبار مصر الوطنية .

وهناك مسألـة يجب أن يعرفهـا المصريـون وهي أن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ينظرون إليهم كأرقى الشعوب الاسلامية وأكثرها أخذاً بالنهوض فهم يعدونها درة

الشرق الناهض اما من حيث حالة البلاد الاقتصادية ففي جزيرة العرب ثروات كبيرة وأغلب تجارة الصادر والوارد في يد اهلها تزاحمهم بعض عناصر من اهل فارس ونجد في البحرين وفي دبي وقليل من الهنود ومغاصات اللؤلؤ تدر على سكان الخليج الفارسي نحو خمسين مليون روبية في كل عام ولكن من المحزن ان رؤوس الأموال الكبيرة تودع في بنوك الهند دون أن تنتفع بها البلاد في اخراج مشاريع جديدة او اعمال تزيد الربح .

وفي اعتقادي ان اهل البلاد العربية الواقعة على الخليج الفارسي أنشط عناصر الشرق واكثر التجارة مع الهند بيدهم ولكنهم لا يستثمرون اموالهم في التوسع في اعمالهم .

ويتحدث عن استعانة العلماء به في تحديد مواقع البلاد فيقول ان (امين واصف) صاحب المصور الجغرافي طلب منه اثناء زيارته لساحل الخليج الفارسي ان يزور (دارين) وان يحدد موقعها ليثبته على مصوره الجغرافي فذهب الى هناك قال فوجدت قرية صغيرة يعيش اهلها على صيد اللؤلؤ والأسماك ولكني وجدت أيضاً تلالا بظاهر المدينة واكتشفت بعد التنقيب في جانب منها انها مباني قديمة قد طمرها التراب حتى اصبحت تشبه التلال .

اما الحديث عن اليمن فيبسطه في وضوح وخبرة واسعة فيقول : لقد قرأت ما كتبه المتقدمون من رومان ويونان في وصف اليمن وما كنت احسب عند سفري اليها انني سأرى فيها اوروبا فان البلاد كلها تشقها جبال مكسوة بالاحراش تتخللها الزهور العطرة فالجو دائماً معطر بعبير الياسمين وهناك حيث السماء الصافية والنجوم المتألقة والارض المزهرة تجود عبقرية الشاعر . وهناك حقول شاسعة للزراعة منسقة احسن تنسيق تزرع فيها الحبوب بانواعها المعروفة في بلادنا والدخان والنيلة والقطن والبن والقات (وهو نبات مخدر) وقد لاحظت رقي الزراعة في تلك البلاد فالحرث متقن والتنقية دقيقة حتى انك لا تجيء على عشبة في الارض والارض ذات خصب كبير وكثيراً ما يبلغ طول عود الذرة ثلاثة امتار حتى ان القافلة لو دخلت مزرعة ذرة لحجبتها عن الانظار ومما يذكر ان البعض يزرع مرة ويحصد ثلاث مرات مثل ارض (لحج) وهي كثيرة الامطار وجبالها مرتفعة . ومن يطوف اليمن يعتقد انها ذات مدنية عريقة وليست بلاد بداوة يرى انها تجمع بقايا مدنيات درست وقد كنت ارى القصور الشاهقة ذات الهندسة العجيبة منتشرة في مركز متصرفية الحدود الى مدينة صنعاء ولم أقع في طريقي على بيوت الشعر او الخصاص التي كنت اراها في الحجاز والعراق احياناً .

ونصل الى رحلة الهند فنجد الحديث عنها طلياً فياضاً :

لقد ذهبت الى الهند في رحلاتي الى الشرق الأقصى خمس مرات وكنت في كل مرة اعود منها اشعر بنوع من الحنين اليها والشغف بالرجوع اليها عند اول فرصة سانحة وعلى كثرة ما شاهدت من الاحياء وشاهدت من الاشياء . لم اجد بيئة تجتمع فيها الغرائب وتضطرم فيها العقائد وتنصهر فيها النفس الانسانية مثلما وجدت في الهند . ملايين الناس وآلاف البيئات ومئات اللغات ، جميع الاديان من الوثنية التي تؤمن بالاحجار الى الصوفية التي تفنى في ذات الله حدث مرة ان دعيت لمؤتمر جمعية العلماء في بنارس فأخذت القطار من بومباي وسار بي الى وسط الهند وفي بعض المحطات كان يقف فيها ، كنا نجد جموع المسافرين من الهندوسيين تمد ايديها من النوافذ باكواب لكي ينالوا جانبا من الماء الذي يصبه السقاة من البراهمة وهم يركضون ، وذلك لأن كل هندوكي يخشى ان هو استبقى ماء معه في رحلته ان تصله نجاسة من شخص قريب منه باللمس او الظل او النظر فيحرم عليه ولذا يفضل ان يبقى ظمآن على الرغم من شدة الحر حتى ينال جرعة ماء طاهر من الساقي . وكان مفروضا ان يصل القطار الى بنارس في منتصف الليل ولكن مشقة الرحلة اضطرتني الى الاغفاء فأغلقت باب الديوان ونمت وحين جاء وفد

جمعية العلماء الى محطة بنارس وبحث عني لم يهتد الى مكاني فسار بي القطار الى مدينة جواديا وهذه المدينة مركز الدعاية البوذية وفيها يعيش نفر كبير من اتباع كهنة جوتاما بوذا ولم يكن هناك سبيل الى البقاء في هذه البلدة، فأخذت القطار العائد إلى بنارس وعند وصولي اسلمت متاعي الى عربة اذ لم يكن احد بانتظاري وطلبت من السائق الذهاب بي الى اكبر فنادق المدينة . فسارت العربة نحو ساعة وانا قلق من هذه الرحلة الطويلة التي لا افهم لها سببا واذا بها تقف واذا بأربعة رجال يأتون من بناء مقابل ويحملون حقائبي فظننت انهم من خدم الفندق الذي اريده فلما تبعتهم ودخلت البناء وجدت نفسي في مسجد كبير وكان الوقت موعد صلاة الصبح فما ان انتهيت من الصلاة حتى وجدت المصلين قد ضربوا حلقة حولي وسألني احدهم (انت سيد) اي من الاشراف فقلت اجل فطأطأ الجميع رؤوسهم قليلا واخذوا يحدقون بي وهم صامتون كانما هم حول معبود من معبودات الهند الكثيرة وبلغت بي الحيرة مبلغها ولم ينقذني الا وصول الشيخ عبد المجيد مندوب جمعية العلماء الذي علم بقدوم زائر مسلم غريب الى المدينة فاخذني من بين القوم وامر بحقائبي فحملت الى منزله وسار بي الى مقر الضيافة عنده وبعد ان استرحت واستقبلت بعض الزائرين احسست

بحركة غريبة في المنزل فقد كان كثيرون يأتون الى الشيخ عبد الحميد ويسرون في اذنه كلاما وكان هو كثير الاضطراب يذهب ويعود وكنت اسمع ضجة في الخارج ، حسبتها اول الامر عارضة ولكن تكرارها في ساعات متعاقبة حملني على ان اذهب الى الشرفة لارى ما هنالك وقد وجدت شيئا عظيما . آلاف من الناس تتجمع امام المنزل وفي الطرقات ويصيح بعضها صياحا منكرا فلما استفهمت عن جلية الخبر قيل لي ان هؤلاء المتظاهرين من فريق المسلمين السلفيين الذين يؤمنون بالكتاب والحديث ويرفضون ما عداهما وان الشيخ عبد الحميد من فريق الشافعية وكلا الفريقين يخالف الآخر خلافاً عنيفاً وقبولي لضيافة الشيخ عبد الحميد تكفي لرميي بما يرمى به فريقه ولذا فهم مستاؤون من اني ذهبت الى مسجدهم وقد طهروا المسجد مراراً ودامت هذه الفتنة اربعة ايام ولم اتمكن خلالها من زيارة بعض كبار الهندوس وعلى الأخص الفيلسوف (بهواندااس) وبعض معالم الهندوسيين هناك ثم عدت .

وبعد ان عادت السكينة الى المدينة زرت مسجد بنارس ذا القبة الذهبية وكان قديماً معبداً هندوسياً فانتزعه الملك أورانجريب من كهنته وحوله الى مسجد .

ونمضي مع الثعالبي فنجد تلك القدرة الفائقة على تفهم

احوال المسلمين من خلال حياة المجتمع الهندوكي فيقول : يصعب على الانسان ان يتكلم عن الهند في حديث قصير ، ان الهند جادة في سبيل الحياة غير هازلة ولا مترددة ولا انكرك ان الهندوس محكمون في مـرافق الحياة ومنهم كثيـرون من الاخصائيين ونحو ٩٠ في المائة من معامل الغزل في بومباي واحمد اباد في ايديهم غير انهم ينقصهم شيء هو الشجاعة الادبية فقد رأينا في المعارك السخيفة التي تقع باسم العناصر او المذاهب وتثيرها اسباب التعصب بين الجانبين ان الظفر دائما كان للمسلمين على الهندوس ، ونرى في بعض القرى التي يسكنها عشرات المسلمين والوف الهنـدوس السيطرة والهيمنة للمسلمين لهذا يرى كبار الزعماء انهم لا يمكن لهم تكوين عظمة الهند الا على اساس التعاون مع المسلمين لانهم العنصر الوحيد المهاب .

ومما يسر ذكره ان الاسلام ينتشر من تلقاء نفسه بالرغم من المعاكسات السياسية والعنصرية ومن عدم عناية المسلمين انفسهم بنشر الدين ، ويرجع الفضل في ذلك الى اصحاب الطرق ففي اكثر البلاد التي يسود فيها الاسلام الوثنية تجده لم ينتشر الا بواسطة هداية اصحاب الطرق ثم تجده يصل انتشاره في البلاد ذات الدول لأن سياسة الدول تعرقل اذاعته في الهند والاوردو

لسان مسلمي الهند وقد كان قبلاً لهجة محرفة عن لسان البشتو وهو اللهجة العامة من لسان السنسكريت ولما انصب الفاتحون المسلمون مثل المغول والفرس وغيرهم وانتشروا في الهند ازدادت لهجة المسلمين انحطاطاً وبعداً عن اللهجة المعروفة وقد أصبح هذا اللسان اليوم في مصاف اللغات الحية وأصبح ارقى من العربية بما ترجم اليه من فنون وعلوم واصبح لسان العلم والتعليم في المدارس ابتدائية وثانوية وعالية فان الحركة العقلية التي يقوم بها ادباء وعلماء الهند جعلت هذا اللسان من اغنى الالسنة الشرقية والفضل في ذلك لمجامع علمية كثيرة تكونت في ظرف نصف قرن من مجمع في دهلي واخر في كلكتا وفي اورانجاباد ودار الترجمة والتأليف الملحقة بالجامعة العثمانية في حيدر أباد ودار المصنفين .

ولا أدل على هذه النهضة من أن أذكر لكم أن فكرة ترجمة القرآن لا تزال مستترة لم تتضح في الشرق الأدنى وخصوصاً في تركيا ومصر ولكنك تجد اليوم في مكاتب الهند ٢٠ ترجمة للقرآن الى لغة الأوردو ولا نجد أي فن من فنون أوروبا بما فيها أحدثها إلا تلقى فيه عدة مؤلفات ففي علم الأخلاق ٣٢٠ مؤلفاً و ٢٠ في الطبابة الشمسية على أنها علم حديث والكيمياء الطبية مثلها وفلسفة الشعر ٤٧ مؤلفاً و ١٥٥ مؤلفاً عن قوانين الأمم

والسيكولوجي ٢٥ مؤلفاً و ٢٢ في الاقتصاد السياسي ويكفي أن نقول إن الجامعة العثمانية في حيدر أباد لا تدرس الفنون في شعباتها إلا بلغة الأوردو وتوجد مؤلفات حديثة قل في أوروبا تأليف مثلها فإذا جعلنا هذه النهضة الأدبية وحدة مناسبة لغيرها من النهضات الأخرى يمكننا أن نتصور مستقبل الهند المسلمة .

اما مدرسة عليكر فيصح ان يتلى فيها بحق انها مدينة العلم في الهند فهي اقدم جامعة اسلامية هناك وارقى جامعات الهند بما فيها جامعات الهندوس .

الفصل الثاني
قضايا العالم الاسلامي

(قضية المدرسة وقضية الاقتصاد)

وهناك لون آخر من الوان الحديث عن الرحلة هو الحديث عن القضايا المثارة في العالم الاسلامي وفي مقدمتها : المدرسة والاقتصاد .

ويتحدث الثعالبي عن المدرسة الاسلامية فيقول :

في الشرق نهضات بسيطة تقوم كلها على الجهود الفردية أو اعمال جماعات صغيرة لا تستطيع ان تكفي حاجة المجموع أو تقوم بالنهضة الصحيحة اللازمة لحياة الشرق ولم تزل هذه الأعمال وهذه الجهود في دور التكوين فقد دلت التجربة على ان كل المؤسسات الشرقية التي لا تشملها الحكومة بعنايتها ولا تمدها بالمساعدات لا تأتي بالفوائد المرجوة منها وهي في نظري لا تخرج عن كونها تجربة من التجارب وحياة الأمم لا تقوم على التجارب .

يوجد في الشرق مدارس كثيرة واغلب هذه المدارس اهلية حرة والغريب ان لكل مدرسة منهاجاً خاصاً بها وهذه المناهج لا تختلف باختلاف الممالك بل انها قد تختلف في المملكة الواحدة والسبب في ذلك هو عدم وجود الاخصائيين في التربية والتعليم الذين يستطيعون وضع مناهج لهذه المدارس والنظام السائد في انشاء المدارس في الأقطار الاسلامية الان قائم على جهود الأفراد الذين يغارون على المصلحة العامة ويهتمون بها ، وهؤلاء الأفراد ينشؤون المدارس ويضعون لها المناهج كل بحسب ما يراه ولهذا فإنّا لا نرى من هذه المدارس تأتي نتيجة مرغوبة .

ولا يخفى ان المدارس اذا لم تنظم على برنامج يتدرج من السهولة الى الصعوبة وان الملكات اذا لم تطبع في ادوار التعليم على الاساليب الحديثة ، كان التعليم عديم الفائدة .

فقد رأيت في بعض المدارس التي تعادل المدارس الابتدائية المصرية أو أقل منها ان الطلبة فيها يلقنون الأصول والتفسير والفرائض والمعاملات وما الى ذلك ، وهذه الطريقة هي الشائعة في الحجاز واليمن والهند وبرما وسنغافورة في المدارس التي ينشئها المسلمون في هذه الأقطار وهي تدل على

ان مستوى منشئها لم يصل بعد الى ادراك طرائق التعليم الحديث ومع كثرة هذه المدارس وكثرة الأموال التي تنفق عليها فليس فيها أية فائدة ولهذا كان مستوى الثقافة الاسلامية ضعيفاً جداً في هذه الأقطار .

وما تزال عندنا مشكلة اخرى في التأليف : هذه المشكلة هي عدم النظام في مكتبتنا العربية وهي مشكلة لا يسهل حلها من ناحية دون الأخرى ولا بد للمسلمين من حلها . حلاً عملياً ويجب أن يكون الحل مطابقاً لفكرة المدرسة الحديثة ولا يمكن ذلك الا بعقد مؤتمر عالمي يجتمع فيه علماء متخصصون بكل فن يكون الى جانبهم اساتذة مختصون بالتربية والتعليم في جميع درجاته ويتفقون على نظام واحد للمدرسة الحديثة لتنهض بالمسلمين على شريطة ان ينفذ هذا النظام أو يلتزم بتنفيذه في جميع المدارس الاسلامية في العالم وبخاصة من ناحية التهذيب الديني ومتى وجدت هذه المدرسة على هذا النظام فاني اعتقد أن روح المسلمين تتغير عما هم عليه الآن ويكثر انتاجهم في العالم وبخاصة من الناحية النفسية وهي اجدر شيء بالتكوين في الاسلام .

ويجب ان يتناول الاصلاح ثلاث نواح : المنهاج والاساتذة

والكتب . ولو وجد هذا الاصلاح في المدارس الكثيرة المنتشرة في العالم الاسلامي لتغير مستوى المسلمين العالمي ولوصلوا الى ما وصل اليه الأوروبيون اليوم من الجمع بين الدين والدنيا .

ويتحدث عن الاقتصاد الاسلامي حديث الخبير المحنك فيقول :

ليس للمسلمين في الشرق مشروعات اقتصادية كبيرة تقوم بها الجماعات الا القليل الذي لا يكاد يذكر ، وانا حينما أقول الشرق لا اتناول مصر ومن هذه المشروعات شركة التأمين في كلكتا التي يرأسها السيد عبد الرحمن الصديقي وشركة الأسواق في رانجون واغلبية المشروعات الصناعية والتجارية قائمة على جهود الأفراد والعائلات ولذلك فهي باقية ما بقي أصحابها فاذا ماتوا أو اصيبوا بأي صدمة في عملهم زالت بزوالهم هذه المشروعات فهناك في الهند وفي برما معامل كثيرة للنسيج وحلج الاقطان وللأخشاب واصلاح الوابورات البحرية وفي رانجون معمل لاصلاح الوابورات يدار باحراق قشر الأرز بدلا من الفحم لأنه أقل نفقة وصاحبه هو الحاج داود أتش وقد كان في أول امره عاملاً بسيطاً فاصبح يمتلك الان غير هذا المعمل الضخم عدداً من الوابورات تشتغل بالملاحة في الهند . والشرق في حاجة

الى شركات كبيرة ولا بد لقيام هذه الشركات من وجود الثقة المتبادلة بين الأفراد ومع ذلك فليست هذه هي العقبة في عدم قيام الشركات فهي مسألة يمكن تداركها اما العقبة الحقيقية فهي هيبة الناس من الربا .

وتقوم مسألة الربا بدور كبير في تأخر حياة الشرق الاقتصادية فان الشرقيين لا يتعاملون بالربا لأن الاسلام قد حرّمه ولذلك فان اصحاب رؤوس الأموال واصحاب الحسابات الجارية المودعة في البنوك لا يأخذون ارباح هذه الأموال كما انهم لا يحبون ان يساهموا في هذه المشروعات لأنهم يعتقدون ان ارباحها نوع من أنواع الربا وقد استغلت الحكومة هذه الفكرة في الهند في مقاومة الاسلام فاتفقت مع المصارف هناك على اعطاء هذه الأرباح الى جماعات التبشير : هذه المسألة لا بد لها من حل حاسم ولا يمكن الوصول الى هذا الحل الا بعقد مؤتمر من علماء المسلمين .

وتوجد معامل كثيرة للمسلمين في الشرق وللبضائع التي تنتجها هذه المعامل اسواق في رانجون والهند ومدراس ، الا ان هذه المعامل كما قدمنا من جهود الأفراد تزول بزوالهم لأنها تؤول الى الورثة الذين يبددونها .

فلو كانت هذه المعامل تؤسس على نمط الشركات بأن يقسم رأس المال بين عدد من الاسهم وان تعرض هذه الأسهم في اسواق الأوراق المالية على انها مغطاة ما دام صاحب المعمل حياً فاذا مات لم يكن للورثة حق بيع المعمل جملة وانما يكون لكل فرد منهم حق عرض اسهمه التي تؤول اليه في سوق الأوراق للبيع ليحل محله في الشركة شخص أو أكثر حسب عدد المشترين ولو ان المعامل الفردية هناك تؤسس على هذا النمط لبقي المعمل ملكاً للأمة وقد سمعت اعتراضاً على هذا الحل وهو ان كثرة المعامل تبتدىء برأس مال صغير ولا يأخذ صاحبه من أرباحه الا الشيء الضروري ثم يضم الباقي الى رأس المال وبذلك يتضخم رأس المال بعد زمن وجيز وهو اعتراض متدارك اذ ان صاحب المعمل يستطيع زيادة اسهم معمله بمقدار ما اضافه اليه من الربح في نهاية كل عام وبتغيير ذلك يكون المعمل عرضة لأن يباع كانقاض بعد وفاة صاحبه وهذا العيب من اعظم الأخطار التي تهدد الحياة الصناعية والاقتصادية في الشرق فان اصحاب مخازن التجارة يحسبون لهذا العيب اكبر حساب . لأن التاجر يعلم انه بوفاة صاحب المصنع ينعدم الصنف الذي يستورده منه وهو في هذه الحالة مضطر الى أن يتعاقد مع غيره من المصانع وذلك لا يتم الا بعد مدة ينعدم الصنف من متجره أثناءها ولهذا

يضطر اغلب التجار الى أن يتعاملوا مع عدد من الشركات الأجنبية الى جانب المعامل الوطنية حتى يضمنوا وجود الصنف باستمرار في متاجرهم .

والخلاصة ان المسلم يقضي اليوم حياته الاقتصادية بفكرتين : الفكرة العصرية وهي فكرة النشاط في العمل والفكرة الدينية وهي الهيبة من صبغ العمل بالصبغة الاقتصادية العصرية فلو امكن الملاءمة بين الثقافة الاسلامية والمدنية الحاضرة في الأعمال الحالية لعاشت مؤسسات الشرقيين ولاستطاعوا الاستغناء بها عن كثير من منتجات أوروبا الغالية ولامكنهم ان يزاحموا بها المنتجات الأوروبية لقلة اجور العمال في الشرق ولتوفير مصاريف الشحن والسمسرة .

والهندي عادة يظل طول يومه في معمله فاذا جاء الليل عاد الى منزله وان الشرقي المسلم يستهين بكل شيء لقاء المحافظة على عاداته وأفكاره الدينية ولهذا السبب اصبحت ارباحه بل أمواله عرضة للنهب ولهذا فإنا نرى ان الثروة الاسلامية تتناقص يوماً عن يوم على الرغم من نشاط أصحابها .

وتاريخ الشرق الاقتصادي تاريخ لا بأس به فقد وجدت في الشرق الأقصى عدة شركات للملاحة كالشركة الفارسية وشركة

السيد عمر السقاف في سنغافورة والشركة العربية ولما كانت انجلترا تستعمر هذه البلاد منذ حين فقد كانت الحكومة هناك تشترط على أصحاب هذه الشركات ان يكون ربان كل باخرة وسكرتيرها من الانجليز وكان غرض الحكومة من ذلك وضع هذه البواخر تحت المراقبة الشديدة حتى لا تتمكن من تهريب الاسلحة أو غيرها من الممنوعات التي يخشاها الاستعمار وكان الاقبال على هذه الشركات عظيماً وكانت أرباحها باهظة على الرغم من اختلال ادارة بعضها وظلت هذه الشركات تعمل بنشاط حتى كانت الحرب فاضطرت الحكومة أصحاب هذه الشركات الى بيعها الى شركات انجليزية .

أما مسألة حماية المنتجات الزراعية فان الشرق لم يقم فيها بعمل ما وكيف يستطيع الشرق ان يقوم بعمل في هذه الناحية وليست عنده مصارف ورؤوس أموال .

امم هذه حالها من الاضطراب والتبلبل والانهزام على الرغم من نشاط افرادها في العمل لا يمكن ان تكون لها فكرة سياسية او اتجاه سياسي معين لأن أساس الاتجاه السياسي انما يبنى على العلم والمال وهما كما رأيت فأما العلم فقشور وأما المال فغير خاضع للنظم الاقتصادية الحديثة فهو لهذا آخذ في التناقص .

الفصل الثالث

قضية المنبوذين في الهند

في عام ١٩٣٧ نشرت الصحف المصرية أخباراً عن احوال طائفة المنبوذين في الهند ذهبت فيها الى انهم قد تبرموا بوضعيتهم الدينية والسياسية فاجتمع رؤ سائهم مرات متكررة ثم قرروا التحول عن الدين الهندوسي الذي صنفهم في اخطر الدركات الى دين يختارونه يمتاز بالخلو من نظام الطبقات حيث يجدون العزة ويتبوءون المكانة اللائقة بهم ، كما اشير في هذه الاخبار الى ان كثيراً من زعماء المنبوذين اثنوا على الاسلام خلال خطاباتهم وان زعيماً من زعمائهم هو الدكتور امبيد كار اعلن في جمع حافل انه لا مناص من تغيير الدين الذي نشأ عليه الى دين آخر لم يحن الوقت لاعلانه وقد اتجهت الأنظار عندئذ الى الأزهر الشريف وكل الناس ينتظرون منه عملاً يشرف الاسلام ويثلج صدور اهله . وتدارس الأزهر القضية فوجد ان

المنبوذين وهم يبلغون خمسين مليوناً يمكن دعوتهم الى الاسلام ودعا الأزهر علماء المسلمين الى قبول السفر الى الهند لدراسة القضية فكان الاستاذ عبد العزيز الثعالبي في مقدمة المبادرين الى ذلك لسابق علمه بأحوال الهند فقدم تقريراً ضافياً بيّن فيه شأن المنبوذين وما يلاقون من هوان ويصف احوالهم وما يحتاجون اليه وما ينبغي ان يقوم به الازهر من أجلهم وقد ذهب في تقريره الى انه ليس من الضروري ارسال بعثة لادخال المنبوذين في الاسلام اذ ان الهنادك سيقاومون بعثة الأزهر أشدّ مقاومة لفرط حرصهم على بقاء المنبوذين على دينهم وان شان بعثة الازهر سيكون التظاهر والاعلان مما يغري الهندوس بمقاومتها غاية جهدهم .

وانه في الامكان ارسال بعثة استكشاف للأحوال في الهند وان تزيد البعثة في عملها بأن تتصل بالبيئات العلمية الاسلامية ورجال الفكر والشخصيات البارزة في الهند، وقد قامت البعثة فعلاً بالسفر والدراسة لأحوال المنبوذين ومعرفة الوسائل الناجعة لهدايتهم الى الاسلام كما درست أحوال الجمعيات الاسلامية والطوائف الاسلامية في الهند وقد اهتدت البعثة في عملها بذلك التقرير الاضافي الذي قدمه الاستاذ الثعالبي .

وقد سافر الاستاذ الثعالبي الى الهند في نفس الوقت الذي سافرت فيه البعثة الأزهرية وكانت غايته دراسة مسألة المنبوذين في الهند ومعرفة وجوه نظر كبار مسلميها فيما يجب عمله في سبيل نشر الدعوة الاسلامية بين هؤلاء المنبوذين .

وعاد الثعالبي الى القاهرة (ابريل ١٩٣٧) وعكف على اعداد تقريره عن الدراسات التي نهض بها خلال رحلته التي امتدت نحو ثلاثة شهور ثم قدم تقريره الى السيد محمد أمين الحسيني بوصفه رئيس المؤتمر الاسلامي العام الذي كان الثعالبي واحداً من أعضائه .

تقول جريدة البلاغ : لقد اجتمع له في هذا التقرير وهذه الدراسات من آيات التوثيق ما تعودنا ان نجده في كل عمل يتناوله بالبحث والدرس وقد ركز تقرير الثعالبي على دعائم أساسية في البحث هي :

اولاً : التحذير من خطر الهندوكية على الهند والشرق .
ثانياً : شعور المسلمين بسيادتهم على الهند .
ثالثاً : مبدأ الخلاف بين المسلمين والهندوك .
رابعاً : المطالبة باستقلال الهند وهي رغبة اسلامية لا هندوكية .

خامساً : ظهور غاندي في الحركة الاسلامية .

سادساً : شغف غاندي وسعيه في اخفاق مطالب المسلمين .

سابعاً : اعلان استقلال الهند .

ثامناً : ما بين المسلمين والهندوك .

تاسعاً : المؤامرة ضد المسلمين ومن هم ابطالها .

عاشراً : حزب مهاسبا : جمعية سانفين .

حادي عشر : يقظة المسلمين وتأليفهم جمعيات التبليغ في الهند .

ثاني عشر : تحرك غاندي بعد جموده .

ثالث عشر : انتخاب محمد علي رئيساً للمؤتمر .

رابع عشر : المؤتمر العام لمسيحيي الهند .

خامس عشر : المقاطعة السلبية .

سادس عشر : سعي المسلمين الى انصاف المنبوذين من انفسهم .

سابع عشر : غاندي يعمل لفصل المنبوذين عن المسلمين : مشروعه لهذه الغاية ومشروع جواهر لال نهرو في معارضته .

ثامن عشر : ما هو الدين البرهمي : الايمان عند البراهمة ونماذج من شرائعهم .

تاسع عشر : اهتمام المنبوذين بأنفسهم بعد اخفاق غاندي .

عشرون : مؤتمرات المنبوذين .

واحد وعشرون : حديث مع كاهن منبوذ خرج من الدين البرهمي .

ثاني وعشرون : حال المنبوذين قبل الانقلاب الأخير ومن هم زعماؤهم .

ثالث وعشرون : محاولة الطوائف الدينية جر المنبوذين اليها .

رابع وعشرون : كيف يشعر المنبوذون بالاسلام .

خامس وعشرون : الارساليات المسيحية في الهند وبعض الاحصائيات عنها .

سادس وعشرون : اراء زعماء مسلمي الهند في اسلام المنبوذين .

وجملة رأي الاستاذ الثعالبي في القضية بعد الدراسة الواسعة العميقة ما يلي :

كانت مسألة المنبوذين في الهند مجهولة عند المسلمين ولم يكن يحسب لها حساب في الحركات السياسية بين العالم

الاسلامي وكانت افئدة المسلمين تضطرب خوفاً على اخوانهم المسلمين في الهند باعتبارهم اقلية ضئيلة بالنسبة للهندوكيين الذين كان الاحصائيون يثبتون انهم يبلغون ثلثي سكان الهند ، لكن جريدة البلاغ لفتت انظار المسلمين في ابريل ١٩٣٦ الى هذه المسألة واخذت تكشف لنا من غوامضها بما كانت تتلقاه من الرسائل عن الهند وما كانت تعلق به على هذه الرسائل بياناً لما اتفقت عليه كلمة المنبوذين في مؤتمراتهم التي عقدت في مدن : بادلا ، تاسك ، تاجبور ، بمباي ، وهو ترك الديانة الهندوكية وقد نبهت البلاغ بذلك أنظار المتبعين للمسائل الاسلامية وعلى الاخص المكتب الدائم للمؤتمر الاسلامي في القدس فكتب الينا سماحة السيد محمد امين الحسيني مفتي فلسطين ورئيس المؤتمر باعتباري عضواً مؤسساً في هذا المؤتمر بالدعوة الى السفر للهند لدرس موضوع المنبوذين والاتفاق مع كبار المسلمين وجمعيات التبليغ وغيرها هناك على ما يجب ان يكون لتحويل المنبوذين الى الديانة الاسلامية وترغيب المسلمين في قبولهم وبحث ما يجب على المسلمين عامة ان يساعدوا به لتحقيق هذه الغاية. ولما كنت اعتقد ان الأزهر الشريف هو الأولى بالسعي لدرس هذه المسائل وتحقيق الغاية قابلت فضيلة الاستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي

شيخ الجامع الأزهر غير مرة وتحادثنا في هذا الموضوع وافضيت اليه بما اجتمع لدي من معلومات بشأنه فطلب مني ان اكتب تقريراً بما اراه وقد فعلت ثم شفعته بتقرير آخر وكان هذان التقريران اساساً لاهتمام هيئة كبار العلماء بدرس موضوع المنبوذين .

وكنت يومئذ ازمع العودة الى تونس ففضلت ان اذهب الى الهند للقيام بهذه المهمة الاسلامية الكبرى التي تسهلت في نظري بالتعاون عليها مع هيئة كبار العلماء في الأزهر ولما وصلت الى الهند وجدت الاعناق مشرئبة الى من يرجى منهم العمل في مسألة المنبوذين وقد طفت جميع اقطار الهند باحثاً ومستقصياً عن رغبة المنبوذين في الاسلام وعن استعداد المسلمين لقبولهم وبعد الوقوف على المعلومات الدقيقة في الموضوع رأيت أن أصفها في تقرير يسهل دراستها على المسلمين في جميع الاقطار او على هيئاتهم الدينية العامة التي يهمها الاشتراك في مسألة المنبوذين .

ويستفيض الاستاذ الثعالبي في تقريره عن المنبوذيون على نحو جامع دقيق لكل ابعاد القضية مع الهندوكية ومع الاسلام ويصل الى غايته حين يقول :

ليس بين المنبوذين من يفهم الاسلام فهماً مطابقاً للواقع ولو بالاجمال ولكنهم يعرفون الاسلام بما قد يبدو لهم من احوال المسلمين وسلوكهم ، والدين بالاجمال مفهوم في الهند عند جميع الوثنيين بالمعنى المعلوم عند المسلمين وغيرهم من اصحاب الكتب السماوية اذا استثنينا فهم افراد قلائل من اكابر المتعلمين بل يفهمونه بالمعنى التقليدي المألوف في الديانة الهندوكية الذي درجوا عليه فهم يرون الدين الحق ما كانوا عليه والباطل ما عليه غيرهم ولا يعلمون شيئاً وراء ذلك .

ولم يبلغ المنبوذون درجة التمييز والاستقلال بالرأي بعيدين عن التأثر بالمحيط الهندوكي وهؤلاء قد يرون الاسلام مصوراً في المسلمين وقد لا يشعرون بما ترشح الى اذهانهم مما يبثه بشأن الهندوك وقد لا يدركون ايضاً للمسلمين فضائل ذكية غير ما يتحدث به عنهم اقاربهم الذين يتصلون بالمدن .

اما عامتهم فليست لهم اقل رغبة في النصرانية لأنها تعرض عليهم الخضوع لنظام الطبقات وتجعل لهم كنائس خاصة منفصلة عن كنائس البيض ولذلك يرجحون الاسلام عليها رغم ما يلقونه من المساعدات المادية التي تمكنهم من حياة الرخاء مع أن الهندوك ايضاً لا يتعرضون للمتنصرين كما يتعرضون للذين

يرغبون في الاسلام .

وعلى كل حال فإن المنبوذ الذي يقبل على الاسلام يجد في طريقه صعوبات كثيرة ومع ذلك فإنه يصححها ويتقدم طائعاً مختاراً الى اعتناق الاسلام وذلك لكي يتمتع بالحق في المساواة التي لا يجدها في غيره .

ويشرح الفيلسوف محمد اقبال في حديثه الى الثعالبي وجهة نظره في هذه القصة فيقول : ان مسألة ادخال المنبوذين في الاسلام كان موضوع اهتمام المسلمين من قبل ولكن قلة المال لديهم جعلتهم يمشون في هذه الحالة متمهلين على قدر استطاعتهم ، ولما ظهر (ابيدكر) ودعا المنبوذين الى ترك الهندوكية فتح المسلمون اعينهم وبدأو يشعرون بأهمية الدعاية الى الاسلام اكثر من ذي قبل ولكنهم مع ذلك يسيرون متباطئين والعلة في ذلك هي نفسها تتكرر ولا تختلف ابداً : قلة المال ولو كان لدينا ما يكفي لما قنعنا بأن نضم الينا المنبوذين بل كنا نتقدم الى الهندوك وهم ايضاً راغبون في الاسلام رغم الدعايات الفاشلة التي يتهددنا بها (اريا سماج) فان الحكومة الانجليزية لما قررت حق الحكم في الهند للعنصريات الغالبة كان الحكم في البنجاب للمسلمين وهم العنصر الغالب فيه فتقدم الينا

كثيرون من أرباب الأسر العالية من الهندوك يبدون رغبتهم في الاسلام لقاء ان نجعل لهم نصيباً معيناً في الوظائف .

(٢)

مما لا شك فيه ان للمنبوذين رغبة صادقة في اعتناق الاسلام وتفضيله على جميع الأديان لمميزات يجدونها فيه وحده منها تقرير مبدأ المساواة بين معتنقيه وهو لا يفرق في ذلك بين جنس وجنس ولا بين لون ولون فهم يرون كل من أسلم يصير أخاً للمسلمين جميعاً له مالهم وعليه ما عليهم يعبد الله تعالى في أي مسجد شاء ويصلي الى جنب اي شخص أراد أميراً كان او مأموراً وان الايمان بالله الواحد الأحد كاف لتطهيره ومنها ان المسلم عنصر شديد الشكيمة لا تلين قناته لغامز ولا يدين بالطاعة الا لله تعالى ولا يستخذي لسلطة غير مشروعة وهو منزع تلتقي فيه جميع رغبات الوطنيين ومنها جمال الآداب الاسلامية وطهارتها وكفايتها للصيانة الاجتماعية ومنها وضوح عقائده ومطابقتها لمنطق العلم والأبحاث العقلية .

استقر ذلك في نفوسهم مما يقرأونه مما ينشر في الكتب والرسائل التي لا ينقطع موردها ولا ينضب معينها .

ولا شك ان علماء الاسلام في الهند نظراً لوجودهم في معترك الاديان قد أصبحوا أقوى مراساً واغزر مادة في تفهم روح الاسلام واعلم بطرق الجدل والنقاش مع مناظريهم من أهل الأديان السائرة ومهما كانت صور الحقائق مستقرة في الأذهان فقد ينبغي ان تقارن بالنظائر والاشباه المطابقة لها في الفلسفة الحديثة وتاريخ الأديان لتكون مثيرة آخذة بالألباب مشرفة على العلم الحديث .

ولكي نتمكن من اظهارها مثيرة مدللة مفهومة ينبغي ترويضها في جملة من اللغات حتى يكمل صقالها وتبدو في مطالع الإلهام الإلهي من الفطر الكريمة واين نحن من هذا كله وبياننا لم يزل فجاً في العربية وهي لغتنا فكيف به في غيرها من اللغات التي لم تروض لتوضيح ما لدينا من عقائد وآداب .

وقد وجه الأستاذ الثعالبي الى شيخ الأزهر والى اللجنة المسافرة الى الهند توصية نادرة المثال في خبرة الداعية الى الله : قال .

ينبغي لرسالة وفد الأزهر ان تصرح في اعلانها عن المهمة التي تريد ان تضطلع بها في الهند اينما حلت بانها مهمة انسانية محضة ذات صبغة عالمية تقوم على خدمة قضايا تاريخية معينة

لتحقيق أبحاث اجتماعية يريد الأزهر ان يساهم في حلها بوجه مرضي قد يكون فيه ما يبعث على ازالة عوامل القلق المتفشية بين اصحاب الأديان الكبيرة السائدة في الهند وقد يصيرون بفضل رسالة الأزهر بناة سلام ودعاة وفاق حين يفهمون جميعاً رسالة الاسلام الى العالم على وجهها الصحيح لا المستعار الذي خلفته القرون فرآه غير المسلمين كالحا ناشفا ، فرسالة الأزهر السامية قد تحمل الى الهند عهد الرسالة المحمدية الأولى بلا لبس ولا كفاح وما هي الا النور والاشراق عن طريق الاقناع والبحث التحليلي وعند سطوع النور الالهي تختفي اشباح الضلال وتلين قسوة الطباع وتهتدي النفوس الحائرة الى الطريق الحق فاذا كل خصومه تنتهي الى وفاق وكل نفور ينقلب الى ائتلاف .

وعلى البعثة ان تتعمق في تفهم سر العطل في اقبال الهندوس على اعتناق الاسلام وتحليل العوارض النفسية التي قد تبدو في ذلك لهم تحليلاً علمياً مقنعاً هل كانت منبعثة عن الغرور بعقائدهم وتقاليدهم المشبعة لغرائزهم المادية أم لشعورهم بتأثيرها السحري القائم على الخوف والرهبة من المال الذي يثبتونه في منقلب الأرواح بعد حياة الأجساد أم هو ناشىء من

اعتزازهم بالقومية والمغالاة في حب الذات أم لانخفاض مداركهم عن ادراك حقائق الاسلام التي تسمو كثيراً عن مذاق روح التأقلم التي يتشبع بها اعيان الهندوس .

وهنا يخلق بي الا أغفل الكلام عن الاشارة بدراسة العقائد الهندوسية في مكانها وتتبع ما حدث عنها من تفرعات وتطورات وأساطير كلما ننتقل منها الى تفهم النفسيات وما تفرعه عليها من قوة وضعف ، أو قناعة وشك حتى نوازن بين عقلية الهنادكة وبين ما نلقيه اليهم من تعاليم الاسلام وقد تكون أسباب العطل خارجة عن افاق الهندوس ولا يستبعد ان تكون من تلقاء المسلمين انفسهم فيجب ان يبحث عنها من هذه الناحية أيضاً . فان المسلمين مع شدة حرصهم على حمل غير المسلمين على اعتناق دينهم قد لا يفطنون الى الملائمة بين قابلية من يدعونهم الى الاسلام والاسلام الذي يريدون ان يحملوه اليهم في اوضاع فقهية جافة لا يعرفون سواها وهي قد تكون سبباً لنفرة من يدعونهم اليه وربما لا تكون متصلة بجوهر الدين وانما قد تتصل بأدب الفطرة وقد يكون منها ما هو محل للتعارض عند اصحاب الفروع من اهل المذاهب فلا ترتاح لقبولها من يدعونه الهاً للاسلام فتكون صارفة لهم عنه والأمثلة على ذلك كثيرة منها

مسألة الختان التي يجعلونها شرطاً في اعتناق الاسلام وخصوصاً بعض المسنين المحتشمين فانهم يجعلون مساق الختان معادلاً للنطق بالشهادتين في صحة الدخول في الاسلام ، حتى كان ذلك سبباً جوهرياً في صرف كثيرين عن اعتناق هذا الدين من وجهاء الهندوس . وهناك مسائل اخرى تتعلق بتنظيم العقد الاجتماعي منها مسألة النكاح وشرط الكفاءة فيه فان المسلم الناشىء في الاسلام يشعر في نفسه بما له من السابقة في الاسلام انه اكفأ من المسلم الحديث فلا يمكنه من مصاهرته وطالما كانت هذه الكفاءة حائلاً دون الاقبال على الاسلام لاعتبارها من العوائق الملابسة لمذهب القائلين بأنه لا مساس .

فقد علمت اثناء رحلتي الأولى الى الهند عام ١٩١٣ ان كبيراً من الهنود من ذوي الثروة والجاه شرح الله صدره للاسلام فأسلم ولكن زوجته الهندوسية أصرت على البقاء على دينها فبانت منه وقد حاول عبثاً أن يبني بامرأة اخرى مسلمة فلم يجد واحدة منهن من بين العامة فكيف بالخاصة ذلك بسبب فقد الكفاءة وبقي المسكين اعزب حتى وفق الله احدى الهندوسيات الى الاسلام فتزوجها ولولاها لساءت حاله .

وقد اوردت هذه الامثلة للتنبيه بها على العوائق التي احدثها

المتفقهة فاصبحت عقبة كأداء في سبيل انتشار الاسلام للسعي في تلافيها وهناك فروع كثيرة قد تعرض للناس في العبادات والمعاملات والاقتصاد والتوفير وهي جديرة بأن تخرج تخريجاً حديثاً يتطابق مع مصلحة الاسلام الحديث .

ولتوفير النظر في هذه الأمور ارى من الأوفق ان يضم للبعثة عالم شافعي ليكون اقرب الى اقناع طائفته في الهند اسوة بغيرها من الطوائف الأخرى الممثلة في البعثة : احنافاً وسلفيين .

وينبغي لتحقيق هذه المأمورية على الوجه الأكمل ان يزور الوفد اهم عواصم الهند ومرابع العلم وان يجتمع مع أكابر العلماء وزعماء الطوائف والفرق الدينية والمذاهب السياسية لبث الرأي في الموضوع فيبتدىء بزيارة السند ثم البنجاب فالكوجرات فاور فدهلى فبهار فالبنغال فمدراس فحيدر أباد . وفي نهاية الرحلة يدعو نخبة المسلمين الى عقد مؤتمر في البقعة التي يختارها الهنود انفسهم للنظر والمداولة في تقرير الحالة وما تحتاج اليه المهمة من الوسائل والذرائع المادية والأدبية وبذلك يكون فصل الختام .

(٤)

الحقيقة التاريخية الخطيرة التي كشف الثعالبي عنها

ولقد كشف الاستاذ الثعالبي عن حقيقة خطيرة في تاريخ الحركة الوطنية في الهند كانت خافية عن العرب وربما كان إخفاؤها هو الذي اعطى (غاندي) تلك الصورة من الاعجاب والتقدير ، ولكن الاستاذ الثعالبي استطاع ان يفطن اليها وان يكشفها وان يزيح الستار عن مؤامرة الاستعمار لاسقاط الحركة الوطنية الهندية من أيدي المسلمين وتسليمها للهندوس يقول : بدأت الحركة الاستقلالية في الهند إسلامية النسب والميلاد فقد أقر مؤتمر ناجبور عام ١٩٢٠ ثم مؤتمر دلهي واغلبيتهما من المسلمين ان تكون المادة الاولى لقانونه إعلان استقلال الهند ووافق مؤتمر جمعية الخلافة على هذا القرار ووافق مؤتمر دلهي على اقتراح الزعيم الإسلامي أبو الكلام أزاد بمقاطعة الحكومة الاستعمارية والنظر اليها على انها حكومة غير شرعية وهنا بدأ غاندي الكيد للإسلام واستعان بالوطنية لبلوغ اغراضه فقد وقف يعارض فكرة المسلمين ويذكر ان اتحاد العنصرين (المسلمين والهندوكيين) يصدع ان شرع المؤتمر في مقاومة الحكومة فرد عليه مولانا ابو الكلام ازاد رداً عنيفاً وقال

ان المطالبة باستقلال البلاد لا تحتاج إلى جهود الهنادكة ان اثروا التخلي عن الحركة التي تعتمد على الله وعلى المسلمين انفسهم ولم يسع غاندي الا ان يتراجع امام هذا التيار الجارف فساير الحركة .

وتجلت مسألة الهنود فيما ابتكروه من نظم لمقاومة الحكومة واهمها احراق البضائع الانجليزية وترك الوظائف الحكومية حتى تتعطل الادوات الكبرى المسيرة للدولة وكان المسلمون هم المتصدرون في هذه الحركات كلها وكان يصل عدد المقبوض عليهم اجبارياً في منطقة واحدة ـ كالبنغال مثلاً ـ الى خمسة وثلاثين الف شخص اغلبيتهم العظمى من المسلمين وعقب ذلك اجتمع الزعماء الهنود في مؤتمر وقرروا إعلان استقلال الهند استقلالاً فعلياً واخذوا ينظمون الدولة على أنهم هم سادتها فيعينون الولاة والحكام والقضاة وبذا رأت الحكومة الاستعمارية نفسها عاجزة تماماً عن مقاومة الحركة بالقوة فكان لا بد من حل ، فليأت هذا الحل عن طريق الهنادكة انفسهم ، دعا اللورد ريدنج المهاتما غاندي الى مقره وتقابلا مقابلة طويلة فلما خرج لم يبح بشيء مما دار بينه وبين الحاكم العام ولكنه دأب على الاجتماع بزعماء المسلمين وبخاصة الزعيم الاسيوي محمد

علي وكان هذا قد القى خطاباً في مؤتمر تاجبور حمل فيه على الحكومة حملة عنيفة جداً فاذا بمقابلات غاندي له تسفر عن كتاب كتبه الى نائب الملك يذكر فيه ان ما نشر عن خطبته في المؤتمر كان مخالفاً لمقاصده ويتضح ان غاندي الح عليه في ارسال هذا الخطاب وقال انه سيكون سراً غير مباح وما ان ارسل حتى اذيعت صورته الزنكوغرافية في طول البلاد وعرضها وبذا بدأت الدسيسة تعمل وتناولت اول ما تناولت العمل على تجريح الزعامات الاسلامية وقد رد مولانا محمد علي على هذه الحملة الحكومية الهندوكية بان القى في مؤتمر كراتشي خطبة اكد فيها عزمه على السير في خطة المقاومة بقدم ثابتة وما انفض المؤتمر حتى ألقت الحكومة القبض عليه وعلى ستة آخرين من اعضائه منهم اثنان من الهندوكيين وفي اثناء المحاكمة رفض المقبوض عليهم الادلاء بأقوالهم تنفيذاً لقرار المقاطعة فحكم عليهم بالسجن سنتين فأذاع مولانا محمد علي بياناً ذكر فيه ان المقبوض عليهم سيحضرون جلسة المؤتمر في شهر ديسمبر من هذه السنة فعلى الأمة ان تعمل ولا تجزع لسجنهم وكان رد الحكومة على هذا البيان ان اطلقت سراح العضوين الهندوكيين اللذين حكم عليهما مع الزعماء المسلمين الخمسة . وفي شهر ديسمبر وهو موعد عقد لجنة المؤتمر حضر غاندي وطلب ان تكون له السلطة

المطلقة في ادارة المؤتمر ما دام الزعماء معتقلين ، فأعطي هذه السلطة وبعد ستة اشهر عقد المؤتمر نفسه ووقف غاندي متسلحاً بقرار اللجنة القاضي بمنحه السلطة المطلقة وقال ان الوقت لم يحن بعد لاعلان استقلال الهند وبذا وقعت الفتنة وعم الذعر في البلاد ومن نتيجة هذا القرار الهادم لكل الجهود الماضية انعقد مؤتمر اسلامي برئاسة حسرت مهابي وقرر عدم الاعتراف بقرار غاندي واستئناف الجهاد فقبضت الحكومة على هذا الزعيم واظهرت منتهى البطش في قمع حركته بأن حكمت عليه بالسجن عشر سنين خففت الى عامين وترجح لدى المسلمين عقب هذه الحوادث ان الهنادكة ينوون التخلي عنهم وانهم يعبثون بهم فدب الشك في قلوبهم وبدا الانشقاق فكان مقدمة لقضم عرى الاتحاد بين المسلمين والهنادكة وقد تحقق هذا الظن من الحوادث التالية بأجلى وضوح .

ويرجع سر هذا الموقف الذي وقفه الهنادكة من الحركة الاستقلالية الى تاريخ قريب هو ذلك الوقت الذي التقى فيه غاندي باللورد ريدنج وقد عرفت أخبار هذا اللقاء من مصادر انجليزية فقد تدارس الرجلان حالة الهند فيما لو نجحت الحركة الاستقلالية وظفرت الهند بحكم نفسها فظهر أن الاسلام يطوق تلك البلاد من كل ناحية ويعيش في فلكها بنسبة يعتدّ بها .

ومعنى هذا أن الهندوكية ستحاصر وسيضيّق الخناق عليها من الداخل والخارج وقد يأتي وقت تمحى فيه من الوجود وأن ينبغي للهندوس ألا يجاوروا المسلمين في حركتهم وأن يعملوا على إحباط هذه المساعي حرصاً على كيانهم الديني الخاص .

هذا هو ملخص ما اذيع وهذا هو الدور الذي لعبه غاندي والزعماء الهندوكيون طاعنين به الحركة الاستقلالية في صميمها .

أيام الثعالبي في بغداد

بقلم العلامة محمد بهجت الأثري

فارق الزعيم السياسي المجاهد ، الرحّالة ، العالم ، الخطيب الاستاذ عبد العزيز الثعالبي مسقط رأسه مدينة تونس (في سنة ١٣٤٢ هـ - ١٩٢٣ م) على أثر انشقاق عظيم في صفوف التونسيين ، أحدثته الحكومة بين أنصار المنهج السياسي الشرقي ، أي العربي الإسلامي ، الذي كان يتزعمه الثعالبي ، وأنصار المنهج السياسي الغَرْبي الذين كانوا يعتمدون على تأييد الحزب الاشتراكي الفرنسي بزعامة حسن قلاتي . .

فارقه الى إيطالية ، ومنها أبحر الى الشرق سائحاً في البلاد العربية والإسلامية ، باذلاً مجهوداً كبيراً لخدمة قضية تونس والدعاية لها ، ومواصلاً الاتصال بأصدقائه وإعطاءهم التوجيهات العامة ، فدخل مصر في سنة ١٩٢٣ ، وزار الحجاز ، وطاف في أرجاء الهند ، وأم المحميات العربية فزار

دَابا « هي التي تسمى الآن دُبَيّ » وقطراً والبحرين والكويت ، الى أن انتهى به المطاف الى بغداد ، فاستقرّ فيها من سنة ١٩٢٥ الى ١٩٣٠ - ١٩٣١ م . وكانت شهرته قد سبقته الى كل بلد دخله ، فكان يستقبل حيث حل بحفاوة بالغة ، ويكرم نزله ، ويحاط بالتجلة والإكبار . ومن أمثلة ذلك ما دونه الشيخ عبد العزيز الرشيد في (تاريخ الكويت) من أنباء الاحتفالات به وما رواه من القصائد التي نظمت في مدحه وأُنشدت أمامه .

- ١ -

أما بغداد ، فقد استقبلته كذلك بالترحيب والتأهيل في احتفال كريم أنشد فيه الشاعر المشهور معروف الرصافي قصيدة جميلة في الثناء عليه وتعديد مزاياه (ديوان الرصافي ١٥٥ - ١٥٦ ، مطبعة المعرض ، بيروت) ، وكانت بينهما مودة سابقة انعقدت أواصرها في عاصمة الخلافة العثمانية كما انعقدت بينه وبين آخرين من أدباء العراق كالأستاذين فهمي المدرس وجميل صدقي الزهاوي ، فضمن قصيدته ما عرفه عن كثب من صفات الثعالبي : من وطنيّةٍ ، وعلمٍ ، وبلاغةِ قولٍ ، وموهبةٍ خطابية ، وغيرةٍ علىٰ العروبة والإسلام ، وجهاد في سبيلهما أدى به في خاتمة مطافه الى مفارقة وطنه الأصغر الى وطنه العربي الأكبر ما

بين الشرق والغرب ، لا مسترفداً ، ولكـن مستنهضاً وموقظاً ، ومعلماً ، ومبشراً ومنذراً . فما لبث بعد هذا أَنْ حفَّ به أهل الفضل ، وشاع ذكره في الناس ، وأَنْ صار واحداً من صميم رجال العراق ، بل لعله تقدّم الكثيرين منهم بالثقة التي حازها عن جدارة واستحقاق .

حل الثعالبيُّ ، في أول أيامه ببغداد ، في فندق ، ثم استأجرت له الحكومة داراً صغيرة ما بين وزارة الدفاع ومسكن الملك ، أقام فيها عدة سنوات ، ثم انتقل منها الى دار أوسع في الجهة الشرقية من المدينة على مقربة من مسجد الشيخ عبد القادر الجيلي المشهور .

وغالب ظني أنه استُقدم الى بغداد . . استقدمه صديقه الأستـاذ فهمي المدرس أمين جـامعة آل البيت ، فـوصل علاقته بالملك فيصل الأول ، وعينه أستاذاً محـاضراً في الجامعة (الشعبة الدينية) لتدريس الفلسفة الإسلامية وحكمة التشريع . وجامعة آل البيت هذه ، كناية عن معهد فقهي صغير ، أُنشِىء في سنة ١٩٢٤ م ولم يزد طلبته في أحسن أحواله على خمسين طالباً . أنشأه الملك فيصل لغرض سياسي خاص اقتضته أحوال زمانه ، ثم سَرْعانَ ما وضعت في طريقه العراقيل

والأشواك بدوافع سياسية خفية فضحها من بعد أمين الجامعة في تقرير[1] رفعه الى الملك نفسه في ١/١/١٩٣٠ م ، ومما قاله فيه (ص ٢٨) : « ان الخطط التي ترسم لها (أي الجامعة) غيرُ ما يبيت لها في الباطن »، « ولقد تقدم الشروع بالتدريسات في الشعبة الدينية تصريحٌ ذو شأن ، لِمقام مختصّ ، حول المخالفة لمشروع الجامعة وتعيين أمين لها .. فمنذ سنة ١٩٢٤ م نحن والجامعة تحت تأثير تلك المخالفة التي دلت الوقائع على أنها لم تكن وليدة اجتهاد مجرَّد ، وإنما كانت ملهمة من قوة يستحيل التغلب عليها ! » . وأمين الجامعة يريد بهذه « القوة التي يستحيل التغلب عليها » المعتمد البريطاني الذي كان هو الملك الفعلي في العراق ، وبإشارته بل بأوامره كان يعمل الوزراء . وبعد مدّ وجزر تناوباها ، أُريد لها مرةً أن تكون « معهداً ثانوياً عالياً » ، ومرةً أخرى أن تجعل عمارتها الرائعة نزلاً للسائحين الأوروبيين تستغله خزينة الأوقاف على ما وصف التقرير المذكور (ص ٤٧) ، ثم نُفِّذت رغبة المعتمد

(١) « بيان موجز عن جامعة آل البيت والشعبة الدينية ، في دورين من حياتهما : دور التأسيس ، ودور الجهاد العلمي » ، لأمين الجامعة فهمي المدرس ، ١ كانون الثاني ١٩٣٠ م ، مطبعة الآداب ، بغداد ، (٥٦ صفحة) .

البريطاني ، فأُلغيت وأنفُ الملك راغم ، تحقيقاً للمناهج الخفية التي كان يرسمها الاستعمار لهذه البلاد ، لإماتة ضميرها العربي الإسلامي ، فمضى فهمي المدرس الى الميدان السياسي يحارب مع المعارضين الاستعمار البريطانيَّ وأعوانه بمقالاته المتوهجة ، وأُرسل الثعالبي خوفاً من امتداد تأثيره البليغ في الشعب ، الى القاهرة ، وسمي فيها مراقب البعوث العراقية ، وقد كان هو والمدرس في الجامعة مصدري قلق للسلطة الاستعمارية التي رأت فيهما خطراً لا مفر لها من الإجهاز عليه قبل استفحاله وظهور نتائجه في الجيل الذي يربّيانه . . وإن كيد الاستعمار ككيد النساء عظيم .

نُقل لي من خبر تعيين الثعالبي أستاذاً في الشعبة الدينية ، من إضبارة جامعة آل البيت المحفوظة بوزارة الأوقاف ، ما يأتي :

« عبد العزيز الثعالبي : الراتب الشهري ٤٠٠ روبية[١] . تاريخ التعيين في مايس ١٩٢٧ ، تاريخ المباشرة في شباط

---

(١) هذا المبلغ يعادل ثلاثين ديناراً عراقياً ، والروبية سكة هندية ، فَرَضَ الانكليز تداولها في العراق الى أن قُبل عضواً في عصبة الأمم .

١٩٢٧ . أعطي شهراً إجازة حسب طلبه المؤرخ في ٢٢/٢٤ ١٩٢٧ بموجب أمر الوزارة العدد / ٦٤٠٦ لقضاء بعض أشغاله في البحرين . و » .

وهذا الذي رُوي من تاريخ تعيينه ومباشرته التدريسَ ، فيه تخليط إذ لا يمكن أن يكون شهر المباشرة سابقاً لشهر التعيين من السنة نفسها ، والصحيح أن تعيينه ربما كان عند أول مجيئه الى بغداد في سنة ١٩٢٥ ، أو بعد ذلك في سنة ١٩٢٦ ، إذْ هو قد نشر أولى محاضراته في الفلسفة الإسلامية التي ألقاها على الطلاب في الجزء الأول من السنة الأولى من مجلة (الجامعة) المؤرخ لـ ٣٠ شعبان ١٣٤٤ هـ = ١٥ آذار ١٩٢٦ م .

وأضيف الى ما ذكر من سفره في سنة ١٩٢٧ لقضاء بعض أشغاله في البحرين ، أنه سافر أيضاً الى إيران مصطافاً ، ولا يحضرني الآن تاريخ سفره هذا . وقد أعجبه جمال الطبيعة فيها ، فكتب اليّ من مصيف شمران القريب من طهران رسالة لطيفة واصفاً طيب هوائه وصحته ورخص أسعاره ورضاه عن مقامه فيه . وهي أنموذج جميل من انشائه الوصفي ، تلمس فيها إحساسه بالجمال واندماجه في الطبيعة الساحرة .

وأذكر كذلك أنه بعد إلغاء الجامعة غادر بغداد الى القدس ،

فعمل فيها مع السيد محمد أمين الحسيني مفتي فلسطين على عقد المؤتمر الإسلامي العام ودعوة أقطاب العالم الإسلامي اليه دفاعاً عن فلسطين وكفاحاً للاستعمار والصهيونية ، فأرسل إليّ بعد وصوله الى القدس بقليل بطاقةً مفتوحة رسمت على أحد وجهيها صورة لبحيرة طبرية أو البحر الميت ، لا أتذكر ، وفي ضفافها يهودي يستحم فيها وعلى رأسه مظلة تقيه حرارة الشمس وبيده كتاب يقرؤه ، فدبج في الوجه الثاني كلمات حارة تصف غيرته وحفاظه على الوطن العربي وعداءه للاستعمار والصهيونية ، وتتدفق أسى وحسرة على أن انشب الاستعمار والصهيونية مخالبهما في هذه البقعة الطيبة المباركة المقدسة من وطننا العربي ، وأَنْ كانت فلسطين مراحاً ومسرحاً لليهود يوشك أن يقيموا فيها دولتهم إن لم ينهض العرب والمسلمون لطردهم قبل استفحال أمرهم فيها .

ثم اجتمعتُ به طويلاً إبان أيام المؤتمر الإسلامي العام في القدس ونحن نجاهد هذين العدوّين : الاستعمار والصهيونية ، وقد كان أثره البليغ في توجيه دفة المؤتمر مع السيد الحسيني ورياض الصلح من أقوى أسباب نجاحه .

ثم افترقنا : عدت الى العراق ، وسافر الى القاهرة مسمى

فيها مراقب البعوث العراقية كما قدمت . . الى أن كُتب لي أن ألقاه للمرة الأخيرة فيها في ربيع سنة ١٩٣٦ م في موسم الاجتماعات القومية التي التقى فيها العراق بمصر من أجل المصالح العربية لأول مرة على عهد وزارة ياسين الهاشمي رحمه الله ، فكان الثعالبي يدعى الى جميع الاحتفالات التي أقامها إخواننا المصريون لوفود الأوقاف ، والبريد ، والطلبة ، وأعضاء المجلس النيابي العراقي طوال شهر أقمناه في تلك الربوع العربية الضاحكة مسرورين متهللين . وبقي في القاهرة مقدراً من أهلها الى أن سمح له بالعودة الى تونس في عام ١٩٣٧ م .

- ٢ -

كان السلوك الممتاز الذي سلكه الثعالبي ببغداد قد اجتذب اليه أعيان البلد ومفكريه من شيب وشبان ، فصيَّر داره مثابة رجال السياسة والأدب والفكر . وقد اعتاد أن يستقبل زائريه بعد العصر من كل يوم . ومن مزايا مجلسه أنه كان لا تدنو منه « الطفيليات » التي اعتادت أن تعيش على هوامش المجالس متضائلةً تسترق لِمَراجعها الأخبار ، وذلك من مهابته ومهابة العِلْيَة الذين كانوا ينتدون اليه ، وكان مجلسه به وبهم أرقى مجلس عرفته بغداد في تلك الأيام بعد مجلس أستاذنا علامة

العراق محمود شكري الألوسي رحمه الله .

وكان أُلّافه في الغالب الزعيم السياسي المشهور ياسين باشا الهاشمي ، وأخوه العميد طه باشا الهاشمي ، والأستاذ فهمي المدرس ، والأستاذ معروف الرصافي ، والأستاذ جميل صدقي الزهاوي ، والأستاذ عطاء الخطيب ، والسيد رستم حيدر رئيس الديوان الملكي ، والدكتور ناجي الأصيل . وكان آخرون من العلية والأدباء يزورونه في الفَيْنة بعد الفينة . أما الشبان المتأدبون وأمثالهم ممن كانوا يتهيبون مجالسة هؤلاء لتفاوت الأعمار والمنازل ، فكان يقسم لهم من أوقات فراغه حظاً يحادثهم فيه ويحادثونه في الشؤون الخاصة والعامة .

واليه والى هذا المجلس أشرت في مطلع قصيدة رثيت بها أحد أُلّافه ، وهو الأستاذ الأديب عطاء الخطيب رحمه الله ، وقد توفي بالسكتة ففجع به أصدقاء ندوة الثعالبي خاصة كما فجع أهل البلاد عامة ، لوطنيته وأدبه وأريحيّته ، فأقاموا له في قاعة (السينما الوطني) عصر الجمعة ١٩ رمضان ١٣٤٧ هـ حفلاً تأبينياً برئاسة الزعيم ياسين باشا الهاشمي ، فكان هو والثعالبي من خطبائه ، والأستاذ معروف الرصافي وكاتب هذه السطور من شعرائه . . قلت :

ونــادٍ زاخـر أدبــاً وعلمـاً ... يفيض على جوانبه الجَلالا
نُيَمِّمُــهُ عشيـةَ كــلِّ يـومٍ ... لننعم أنفسـاً ونطيب حـالا
ونحن معاشرُ امتزجوا قلوباً ... كماء المُزْن منسجماً زُلالا ،
نُنادي[1] فيه أروعَ يعـربيا ... يزيد جلال مجلسه جمالا
تـرانا مُحْـدِقينَ به جميعـاً ... كـأنـا أنجمٌ حفَّت هــلالا
فيطرف بعضُنا بعضاً حديثاً ... أَلَذَّ من النسيم سرى شمالا
. . . . . .[2]

وكما كان مجلسه هذا ملتقى رجال العراق وأدبائه وعلمائه وشبابه ، كان كذلك ملتقى كبار الوافدين على العراق من ساسة العرب والمسلمين ، فكان يحتفي بهم ، ويولم لهم مع ضيق ذات يده ولائم يجمع اليها كبار أصحابه مراعياً التجانس وتقارب المقامات وتشابه المشارب . وكان يقدم الى ضيوفه أول ما يقدم الطعام الرئيس في بلده الذي يقال له الكسكسي والكسكسون ، وهو طعام أندلسي مغربي مشهور لا يزال أهل شمال إفريقية يبالغون في التنوّق له ، وكان الثعالبي يصنعه بنفسه ، إذ كان

---

(١) اي نُجالِسُ .
(٢) القصيدة نشرت في جريدة العراق ، في ٢٢ رمضان ١٣٤٧ ـ ٤ آذار ١٩٢٩ ، وفي جريدة الشورى بالقاهرة .

خادمه لا يحسن صنعه ، وقد شاهدته مرة وأنا داخل عليه قائماً بصنعه مشمراً عن ساعديه والى جانبه خادمه يعاونه ، فاستقبلني ضاحكاً من أن أراه في زي طباخ ، فقلت له : خادم القوم سيّدهم ، وطاهيهم أميرهم !! فقال : بل نحن جميعاً إخوة .

وأخص بالذكر وليمته للزعيم الإسلامي المشهور محمد علي رئيس جمعية الخلافة في الهند ، لدلالتها السياسية وللتمثيل بها لطبيعة مجلس الثعالبي ، وقد جمعت هذه الوليمة بين الكياسة والسياسة ، وأنشد فيها الأستاذ معروف الرصافي مقطوعة سياسية جميلة، (عنوانها في ديوانه ص ٤٢٨ ، الحَمَلُ والفيلُ) ، بدأها بالإشارة الى صفة مجلس الثعالبي من الأمانة الى جانب حرية القول فيه ، ثم خلص الى موضوعه فقال :

إليـك ، زعيمَ الهنـدِ ، أُورد هـاهُنـا
سؤالاً لــه أرجـو الجــوابَ تفضُّـلا

فنحن هنــا في مجلس ذي أمـانــة
فلم يخشَ فيــه الحُــرُّ أن يـتقــوّلا

إذا ما سمِعت الهند في قول قائـل
تخيلت فِيــلاً بــالحــديـد مكبَّــلا

تـزجّيـه كف الأجنبي مُسَخَّـراً
فيمشي بـأعبـاء الأجـانب مُثْقَـلا
ويُتْـرَك أحيـانـاً على الأرض رازحـاً
لـه أنّـةٌ من ثُقْـلِ مـا قـد تحمـلا

ويُنْخَس أحيـانـاً ، فتـعلوه رجـفـة
فيمضي على رغم القيـود مهـرولا
وإني أظنّ الـفيـل صـاحـبَ قـوّة
تكون له ، لو شاء ، من ذاك مَوْئلا

فلو قام هذا الفيل واستجمع القوى
لـهـزّ بهـا شُـمَّ الجبـال وقلقـلا
ولـو لم تكن بالفيـل عندي عـلاقـة
لما رُمْتُ عن هذا جـواباً مفصَّـلا :

لنـا حَمَـلٌ ، وهـو العـراق ، نـظنّـه
غـدا من وراء الفيل للذئب مـأكـلا
فـإن يَنْجُ هـذا الفيل من قيـد أسره
نجـونا ، وإلا أصبـح الأمـرُ معضـلا
فإن لم يكن هذا صحيحاً ، فما الذي
تـرون سـوى هـذا عليـه المُعَـوَّلا ؟

ومن بعـد هذا ، يـا محمـد ، إنّني
أُحَيِّـك باسم النـاهضين الى العُلَىٰ

وقد طلعت الصحف في اليوم التالي وفيها خبر هذه الوليمة السياسية ، والشعر الذي أنشده فيها الرصافي ، فقرأه رجال دار الاعتماد البريطاني كما قرأه رجال الدولة وعامة الناس . . ولكن الثعالبي لم يكن بالذي يبالي أن يجر السخط عليه بمثل هذه الندوة التي استعلنت فيها مناهضته للاستعمار البريطاني ذي العلاقة الوثقى بالفيل وبالجمل معاً .

وقد كانت أحاديث الثعالبي في مجالسه الخاصة والعامة تدور دائماً حول محور قضايا الوطن العربي والأوطان الإسلامية في المشارق والمغارب ، وسياساتها ، والحرية والتحرر ، والاستعمار الغربي الذي أناخ عليها بكلاكله وما يبيته للعرب والمسلمين ، والصهيونية التي ينذر نموّها بهجرة اليهود المتزايدة الى فلسطين ، بشر مستطير ، وأحـوال العرب والمسلمين وحياتهم الدينية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية ، وما ينبغي من تجديد ذلك كله ، ولا سيما الحياة الدينية التي علقت بها البِدَعُ والخرافات والأوهام التصوفية التي تلبستها في العصور الوسطى من أقاصي الهند الى الأندلس ، فسيطرت على تفكير

الخاصة والعامة سيطرةً شلّت العقول ، وأضعفت الإرادة ، وقعدت بالعزائم عن النهوض للعظائم وجلائل الأعمال ، ثم انتقلت الى الأجيال الخالفة ، فكانت سبباً مهماً في ضياع الدولة والسلطان وسهولة استيلاء الغرب على بلاد العرب والمسلمين .

وكان يتحدث في أدق الشؤون لكل بلد عربي أو اسلامي ، حديث العالم الخبير . . يتحدث عن مصر ورجالها من علماء وأدباء وقادة وسياسيين واقتصاديين ، وعن شؤونها الخاصة والعامة ، أو عن الهند ، أو المحميات العربية أو الحجاز أو شمال إفريقية وعلاقاتها السياسية بفرنسة واسبانية وإيطالية ، أو أي بلد زاره وخالط أهله . . كما يتحدث عن تونس وأحوالها السياسية والاجتماعية والعلمية والفكرية بتفصيل وإحاطة وإسهاب ممتع كل الإمتاع ومفيد غاية الإفادة .

وهو في أحاديثه لم يكن صاحب قصص ورواية ، بل كان صاحب رأي واجتهاد ، فكان يصدر في كل ما يفيض فيه من كلام عن خطة فكرية رسمها لنفسه وآمن بها إيماناً مطلقاً ، وكانت مُنْطَلَقُه في كل ما يدعو اليه ، ويجمع القلوب عليه ، ويسعى سعيه في ترسيخه في النفوس ، وفي تطبيقه تطبيقاً عملياً منذ افتتح عهد زعامة في تونس ثم أنشأ بمقتضاها (مجلة

الفجر) في ذي القعدة (١٣٣٨ هـ - أوت ١٩٢٠) مُفْتَتَحةً بمقال بسط فيه هذا المنهج الذي اطرد سيره عليه . ويتلخص من حيث الأصل في أن مصدر التوجيه هو الدين الإسلامي ، وأن الدين قوامه العلم والأخلاق ، ووسيلة نشره الدعوة والتناصح ، وأن من حق الدعوة الإقدام في سبيلها والاستخفاف بما يتعرض له القائم بها من متاعب أو يناله من إرهاق[١] .

وكانت دعوته في بغداد امتداداً لهذا النظر الإصلاحي الذي كان محل اتفاق التونسيين، والذي هيأ به نهضة فكرية في بلاده سابقة للنهضة السياسية التي تمثلت دعوتها في كتابه باللغة الفرنسية (تونس الشهيدة) ، وفي منهج (الحزب الدستوري) الذي رأسه فاهتم أي الحزب بمقاومة البدع المقحمة على الإسلام ، وحارب العوائد الفاسدة ، وعمل على توجيه الحياة الاجتماعية والمشروعات الخيرية والفكرية والاقتصادية الى جانب سياسته التحررية التي تحارب الاستعمار الفرنسي ، وتتجه الى مصر والشرق العربي ، وتناضل دعاة التبعية والتغريب ، وتسعى جاهدة في ابراز الشخصية العربية بوصل الحاضر بالماضي وتوثيق الطارف بالتالد وبناء الكيان العربي

---

(١) ينظر في هذا كتاب الحركة الأدبية والفكرية في تونس .

الاسلامي ، على أساس متين من أصالة الأمة العربية وآخر مثله من أصالة الشعور الجديد الحي ، يعتز بالاستقلال الفكري والاجتماعي اعتزازه بالاستقلال السياسي والاقتصادي . . .

وقد كان منهجه هذا، وهو المنهج الحق الذي يمليه واقع الأمة العربية في كل مكان وزمان ، يلقى أنصاراً ومؤيدين أقوياء حيث كان ، لسلامته وصدقه وموافقته للاتجاهات الوطنية في البلاد العربية جمعاء .

وكان امتياز الثعالبي بالصدق ، ووضوح أنظاره السياسية والفكرية والدينية والاجتماعية ، وانفعاله الذي تؤازره قوة عارضة وبلاغة تعبيره وعمق تحليله وبراعته في الاسترسال فيه استرسالاً يحلو ويعذب ويستحب كلما امتد به نفسه . . سبباً مهماً في إضفاء السحر على أحاديثه ، واجتذاب السامعين اليه ، وقبولهم لأفكاره من غير مراجعة . وأشهد أنني كنت أخرج من عملي الى مجلسه وأنا بارد القلب أحياناً ، فما هو إلا أن نتجاذب أطراف الأحاديث في السياسة الوطنية والاستعمار أو في شؤون العرب والمسلمين هنا وهناك ، حتى يتناول الزمام فيفيض في الشرح والتحليل وتتوهج عباراته بحرارة الصدق في بسطه للواقع الذي نعيشه وأسباب بقائه واستعصائه على التغيير والتبديل وأثر

الاستعمار والضالعين في ركابه في تخلف العرب والمسلمين ، فلا أفارقه الا وأنا مضطرم النفس على الفساد وبواعثه ومسبّبيه ، ثائر على الاستعمار وأعوانه وعلى التبعية والتغرب الذي يدعو اليه الجواسيس والعملاء . ولقد كان أثره كبيراً ، وأنا في صدد الشباب ، في نفسي وفي توجيهي وانصرافي الى الإصلاح الاجتماعي الذي بدأته بتأسيس جمعية الشبان المسلمين ببغداد على أثر عودتي من رحلتي الى تركية والقاهرة في صيف سنة ١٩٢٨ م ، بعد مداولته ومذاكرته في نظامها واختيار الأعضاء العاملين وغير ذلك من الشؤون . وقد جَوبِه تأسيسي لهذه الجمعية ، مع وضوح ما أعلنت من مقاصدي في الإصلاح الاجتماعي . بمعارضة من بعض قصار النظر من كتاب الصحف ، فكتبت أردّ عليهم ، وأطلعته على ما كتبت ، فكان من رأيه اتباع الملاينة ، لتتقارب وجهات النظر ويحصل التعاون بين الوطنيين ما داموا جميعاً يلتمسون النفع العام وإشاعة الخير والصلاح في البلاد . والى جانب هذا الاتزان الحكيم كان يدعو الى إثارة الضجيج على الاستعمار وأعوانه ، وانتحاء الشدة في ذلك عند كل فرصة من غير وناء ولا انقطاع .

وخاصية الثعالبي هذه في التأثير على النحو الذي وصفت ، لم أجدها عند غيره على كثرة من خالطت وحادثت من الزعماء

والثوار والمفكرين في العراق والشام وفلسطين والحجاز ومصر والمغرب . وَمَرَدُّ هذه الخاصية فيما أرى الى تعدد مواهبه من بسطة الجسم ، الى بسطة العقل والذكاء ، الى بسطة العلم ، مع سجاحة الطبع، والموهبة الخطابية، والتمكن من ناصية البيان ، والقدرة على التحليل ، والتهدّي الى مواطن الاحساس من الضمير الانساني .

وأسلوب الثعالبي في مجالسه الخاصة متحدثاً ، أسلوبُهُ في المجامع العامة خطيباً ، حرارةً وانفعالاً وتدفقاً وقوة عارضة وبلاغة بيان .

وقد كان مشهوداً له بالتبريز في الخطابة . وصفه الأستاذ معروف الرصافي في كتابه (نفح الطيب في الخطابة والخطيب) الذي ألقاه دروساً على طلبة مدرسة الواعظين في اسطنبول بأنه «أعظم خطيب عربي عرفه هذا القرن» ، ولم يتحفظ في هذا الإطلاق والتعميم مع اشتهار كثيرين غيره في مصر خاصةً بالسطوة الخطابية والقدرة الفائقة فيها ، وعندي أنه واحد من رجال هذه الطبقة من الخطباء وقد شهدته يخطب في بغداد وفي القدس فشهدت خطيباً بليغاً مؤثراً يأخذ بمجامع القلوب ببروز شخصيته ، وقوة أدائه ، وشدة انفعاله ، وتدفقه .

وقد كانت اللغة العربية الفصيحة أداته في أحاديثه وخطبه ، فلم ألمح عنده في الحالتين أثراً للهجة التونسية .

أما أخلاقه ، فهي أخلاق السلف الصالح رجولةً ، وعزيمةً ، وبُعْدَ همة ، وسموَّ نَفْس ، وصدق حديث ، وعفةً ، ومروءةً ، ووفاءً ، ونُبلًا ، وحباً للخير والصلاح ، وارتياداً لهما لوطنه وأمته والناس أجمعين . وقد تجلت هذه الأخلاق في سيرته العملية في قوة ووضوح سواءً في تناول القضايا العامة بمثل انتصابه للإصلاح الاجتماعي والسياسي وحمله أعباء الجهاد وتكاليفه الى أن شرده الاستعمار الفرنسي من وطنه ، وعاش بميسور البلغة سائحاً غريباً تتلقفه بلاد الله . . أو في علاقاته الخاصة بأصحابه وبالناس واجتهاده في جلب النفع اليهم ودرء الضر عنهم . وتحضرني من أخلاقه في علاقاته الخاصة ثلاثة أمثلة شواهد على نبله ووفائه ومروءته وأدب نفسه ، أرويها ها هنا استكمالاً لوصف شخصيته :

(١) كانت بين فيصل الأول والشاعر معروف الرصافي جفوة شديدة ، نشأت من قصيدة سيّرها الرصافي في هجاء أبيه عند تحالفه مع الانكليز ضد دولة الخلافة العثمانية ، ومطلعها قوله :

هي النفــوس وإن لم تبلغ الحُلُمـا
مجبـولة الـطبع إنْ لؤمـاً وإن كرمـا

فلما جيء بفيصل الى العراق ، كان الرصافي يومئذ في القدس ، فاستدعاه أصحابه فقدم الى بغداد ، ومع أنه استقبل فيصلاً في دار النقيب الكيلاني ببعض الشعر ، ارتجله فيه وفي النقيب ، فإن فيصلاً ظل على جفوته له ، وثأر الرصافي للنبوغ تهدره حزازات النفوس المتسلّطة ، فطفق ينظم فيه الأبيات الشوارد ويرسلها تسير مع الرياح وتتناقلها الألسن في كل مكان ، ثم هجر الرصافي بغداد الى بيروت ، وأنشد في حفل تكريمي أقيم له قصيدة بائية ، تعرض فيها للملك فيصل وطبيعة حكمه ، ومما قاله فيها :

لنــا ملك تــأبى عصــابــة رأســه
لهــا غيـر سيف التَّيْمِسِيِّينَ عــاصبـا
وليس لــه من أمــره ، غيــر أنــه
يــعــدد أيــامــاً ويــقــبض راتــبـا

وأقض ذلك مضجعه، فاتُّخذت الوسيلة لإرضاء الرصافي فاستقدم وعين في منصب علمي بوزارة المعارف . . ولكن الجفوة بينهما ظلت على ما هي عليه إن لم تكن قد اشتدت

بسبب هذا الهجاء وغيره ، فلم يلِن الرصافي للملك ، ولا الملك استدعاه اليه . . وحز استمرار تنكر كل منهما للآخر في نفس الثعالبي ، فجهد جهده مع الملك لاسترضائه عن الرصافي من حيث لا يدري الرصافي حتى خفف من موجدته عليه ، وجهد جهده مع الرصافي من حيث لا يدري الملك حتى خفف من كراهته له ، ليلتقيا على الصفاء والمودة ، وليكون لهذا اللقاء بين الملك والشاعر الموهوب نفع للبلاد ، الى أن وفق لِما أراد ، فدعاه الملك اليه في مسكنه ذات ليلة مع الثعالبي ، ولكن ما لبث أن انهار مجهود الثعالبي منذ أول اجتماع الرصافي بالملك في هذه الليلة نفسها . وكان الثعالبي قد أخفى أمر مساعيه هذه عنا ، أُلاّف مجلسه اليومي ، حتى هذه الليلة . وقد اتفق أنْ دخلت عليه ساعة تهيؤه هو والرصافي للقاء الملك ، وأنا لا أدري من الأمر شيئاً ، فدعوتهما لِما هما فيه ، وعطف الثعالبي يرجو أن ألقاه في المساء المقبل لأمرٍ قد أحبه ، ولم يزد على ذلك . فلما لقيته حدثني عن مسعاته في إزالة الجفوة بين الملك والرصافي وتمهيده لذلك زمناً طويلاً ، ثم ما انتهى اليه اجتماع الليلة الماضية ، وكيف باء في النتيجة بالخجل الشديد من الملك !! قال ، وقد تنازعه الأسف والحيرة : لقد هدم الرصافي في لحظة ما بنيته في شهور طوال . قلت : كيف ؟ قال : إن

الملك باذأ معروفاً بالعتاب على ما صدر منه في تاريخه الطويل من مجافاة وهجاء لأبيه ثم له، وقال له فيما قال: أأنا يا معروف أعدد أياماً وأقبض راتباً ؟ مشيراً الى الشعر الذي أوردته قريباً ، قال : فما كان من معروف إلا أن ردّ عليه قائلاً : أرجو ألا تكون كذلك ، يا صاحب الجلالة ! قال : فاربدّ الملك وأمسك ، وحرت كيف أردّ الصفاء الى مجلسنا اللطيف على دجلة . قلت له : من الملوم ؟ أليس الملك ؟ أما كان عليه أن يمسك عن العتاب ، ويكتفي بمجاملة اللقاء ؟ قال : حق ما تراه ، ولكن هذا ما فرط منهما ، وسأعود لرأب الصدع !

(٢) أذاعت الصحف في شهر سنة خبر اجتماع يعقد بين الملكين، عبد العزيز آل سعود وفيصل بن الحسين ، لإزالة الجفوة بين الأسرتين الحاكمتين في المملكة العربية السعودية والعراق . وطرب الناس لسماع هذا النبأ ، ولكن أراد الاستعمار تعكير نفس الملك فيصل ، لأمرٍ ما قصده ، فلفّق رسائل موجهة من العراق الى الملك عبد العزيز آل سعود تفيض بالطعن وزعم للملك فيصل أن رقابته قد ظفرت بهذه الرسائل فحجزتها وها هوذا يضعها بين يديه يتصرف فيها . . فدعا الملك مشاوريه اليه ، ووافق ذلك حضور الثعالبي - أو هو

قــد دُعي الى المشــاركــة ـ فسمعهم يتهمـون بكتــابتهـا أناساً يـرونهم غير مـوالين للقصر ، وهـم المحـامي قاسم العلوي والمحامي علي محمود الشيخ علي ، المحرران السياسيان في جريدة الاستقلال ، وعبد الغفور البدري صاحب جريدة الاستقلال ، وكاتب هذه السطور . فخالفهم الثعالبي ، وقال : بل هذا أمر مدبّر من الجهة التي حملت الرسائل الى الملك ، يراد به الإفساد والقطيعة والإيقاع . قال : وهؤلاء الذين ترونهم غير موالين هم من خلّص الوطنيين على ما أعهد من سيرتهم ، ولهم من العقل وبُعد النظر والترفع عن الصَّغار ما يبعد عنهم التهمة ، فمن الخير أن يطوى أمر هذه الرسائل ولا يتعرض لواحد منهم باستجواب ، لا من قرب ولا من بعد . فيطوى الأمر على غرّة كأن لم يحدث شيء . وأفضى اليَّ ـ بيني وبينه ـ بالخبر ، فقلت له : أنت على علم بدخيلة نفسي ومعرفة تامة برأيي في الحكومة ، ولم تبعد عن الحق فيما وصفت به هؤلاء الذين يتهمهم به مشاورو الملك (الأذكياء جداً) ليوقعوا بهم ويخلصوا من معارضتهم ، من الترفع عن الصَّغار ومن بعد النظر ، إذ ما جدوى رسائل من هذا النوع في أمر قد تقرر وأُعلن موعده ومكانه في صحف العالم كافة ؟ وهل نحن أوصياء منصوبون على الملك عبد العزيز وموجهون لسياسته ؟ فقال :

إن مصيبة هؤلاء الحكام من حواشيهم وأتباعهم والمتزلفين اليهم ، ثم من أنفسهم بإصغائهم الى الوشايات التي تفسد ما بينهم وبين الناس ، وهي إذْ تنتهي بإيقاع العداوة وبإنزال الشر بالموشي بهم ، لا تنتهي بالحاكم إلا الى شرّ يصيبه من بعدُ في غالب الأحوال . ولو كان هؤلاء الحواشي على شيء من الذكاء والأخلاق وطيب النفس لما أبقوا معارضاً من الوطنيين النابهين خارج نطاق الولاء . ثم قال لي ، وهو يضحك : إنني أعلم أن طبيعتك لا تستسيغ مراسيم القصر وزلفاه ، ولكنك ستدعىٰ بعد أيام لمعايدة الملك في « البلاط » صبيحة عيد الفطر . . كأنه أراد أن يذكر لي إصلاح ما علق بنفس الملك عني من التصورات الفاسدة التي كان يلقيها اليه جواسيسه وشياطين المنافقين ، وما أكثرهم في كل مكان وزمان ! وقد كانت العادة أن توجّه بذلك دعوات رسمية خاصة ، وكان الملك يحضر بنفسه ويقبل التهنئات واقفاً وحوله وزراؤه . فقلت له : هذه دعوتك ، وليست دعوة « البلاط » ، فأنا اذا لبيتها ، فانما ألبي دعوتك وأعدّ تهنئتي للملك موجهة الى شخصك لا اليه . فضحك طويلًا ، وقال أشكرك ، وإنْ أريد إلّا الإصلاح .

(٣) في إبّان انعقاد المؤتمر الإسلامي العام في القدس ١٣٥٠ ـ ١٩٣١ دعا الأستاذ عوني عبد الهادي ، وهو من كبار

ساسة فلسطين وخطبائها ، جماعة من ممثلي البلاد العربية في هذا المؤتمر الى مؤتمر عربي عقده في داره ذات ليلة لوضع ميثاق قومي . . . أذكر من شهوده الأستاذ الثعالبي ، والعلامة محمد رشيد رضا ، ومحمد علي علوبة باشا ، ومحمد إسعاف النشاشبي ، وآخرين بعضهم من ساسة فلسطين وبعض آخر من بلاد عربية أخرى لا تحضرني أسماؤهم الآن . وفيما كنا حافين بالمائدة وقد انتصف الليل ، نتجاذب أطراف الأحاديث ونحن نتناول عشاءنا ، إذ ندّت من بعض الحاضرين ممن لم أورد أسماءهم ، وكان من علماء صُقْع الثعالبي ، هفوة في حق سيدة مشهورة عاملة في الحركة النسوية جرى ذكرها في أثناء الحديث عرضاً واستطراداً . . ثقلت على الثعالبي ، ورأى فيها نبوّاً عن الذوق لا يلائم جلال الحاضرين ولا يليق أن تصدر من مثله ، هذا ولم يكن الثعالبي على وفاق مع السيدة في كل ما تراه . . فانتفض غاضباً ، ومال على صاحبه بالملام ولكن بلفظ مهذب ، مستنكراً أن يصدر من مثله لفظ ناب في حق سيدة من كرائم العقائل ، في مجلس عالٍ كهذا المجلس يضم نخبة من خيار علماء المسلمين وساستهم اجتمعوا لغرض من أنبل الأغراض ، وما الى مثل هذا وجهه الدين الإسلامي الذي يمثله . وأظن الشيخ ، وهو لا يزال حياً يرزق ولم يكن رجل سوء ، ولكنه الزلل

الذي لا يعصم منه إنسان ، قد تعلّم من الثعالبي درساً يوقّيه العثار ، ويعصمه من أن يتردى ثانيةً في مثل ما تردّى فيه في هذا المجلس .

- ٤ -

أما طبعه ، فتغلب عليه الدماثة واللطف ورقة القلب . واذا اعتراه الغضب من أمر يسوؤه كالذي ذكرت من هذا الخبر ، اجتهد أن يكبح جماحه بحيث لا تكون منه مناقضة لما ينافح عنه من الآداب ، فتحس انفعالاته في وجهه وبريق عينيه وارتجاف صوته وهو يحاول تغليب أدبه على غضبه وإرضاءَ حاجته منهما معاً .

ومما أدركت من طبعه ميله الى الاقتصاد والتوسط في العيش بين الإسراف والتقتير ، وتدبير نفسه بما يجيئه من قليل الرزق تدبيراً حكيماً يخفي قلة ذات يده ، ويظهره بما عليه من حسن الثياب ونظافتها وروعة الشارة كأنه من أهل الثراء الرافلين في حلل النعيم .

وكان يُبطن لأسرته وولده الوحيد عبد الحميد ، الذي توفاه الله بعده ، حباً شديداً ، وحنيناً زائداً ، كانا ينالان من نفسه كلما

طال أمد بعاده ، ولكنه كان يكتم ذلك ، لا يتحدث به ، ولا يظهر عليه أحداً من خلفائه . وما كنت لأعلم ما به من هذا الحب والحنين المفرط ، إلا من دخولي مجلسه ذاتَ يوم أولَ داخل ، واذا هو ينظر في رسالة ويذرف دموعه ، فحين أحس دخولي بادر الى مسح دموعه بمنديله وإعادة النظارة الى عينيه قبل أن أرى ما هو فيه . فقلت له مازحاً : أراك يا أستاذ مستبشراً ، فهلا سررتني بالنبأ ؟ قال : رسالة وردت من عبْد الحميد طمأنتني عليه وعلى الأسرة ، والمحمود الله جلّ جلاله .

- ٥ -

وسألتني ، أبقاك الله ، أن أذكر محادثاته أو محاضراته . وها أنذا قد ألممت لك بالصورة العامة لمحادثاته والمحور العام الذي تدور عليه . أما محاضراته ، فاذا عنيت بها ما يحاضر به زائريه في مجلسه من محاضرات ومسامرات أو أحاديث عن رحلاته ومعارفه الواسعة بأحوال العرب والمسلمين ، فهذا ما لا سبيل اليه ، لكثرته وعدم تدويني له ، ولبعد العهد بجزئياته التي لا تحصى ، واذا تذكرت منها شيأً ، خشيت أن أدخل عليه ما ليس منه . وهو ، رحمه الله ، قد دون منه مجلدات كان يعكف عليها في خلواته ، ولا أدري ما فعل الله بها ، وهي غاية في

« الأهمية » . وقد ذكرتها لكثير من أفاضل التونسيين ، وأغريتهم بالبحث عنها بين مخلّفاته لدى ورثته ، والسعي في طبعها ونشرها ، إذ تضمنت علماً غزيراً وفوائد جمة تلقي على التأريخ الحديث أضواء كاشفة لا غنى لباحث عنها، ولا بدّ من الإحفاء في إحيائها بالنشر .

واذا أردتَ محاضراته في الشعبة الدينية من جامعة آل البيت الملغاة ، فهذه منشورة كلها أو بعضها ، لم أتحقق ذلك ، في مجلة (الجامعة) . وقد صدرت هذه المجلة بقطع كبير ، ما بين سنة ١٩٢٦ وسنة ١٩٢٨ م ، ثم أُوقفت . وقد اطلعت على أحد عشر جزءاً منها متسلسلة الأرقام ، ولست أدري أهي كل ما صدر منها ؟ وهذه الأجزاء ، هي :

(١) الجزء الأول، السنة الأولى (٣٠ شعبان ١٣٤٤ هـ ـ ١٥ آذار ١٩٢٦) وفيه أولى محاضراته بعنوان (محاضرات الفلسفة الإسلامية) وهي في ١٩ صفحة ، تحدث فيها عن الإسلام من حيث هو دين صلاح وانقلاب جاء لهداية البشر قاطبة ، وعن الأديان التي انتشرت في بلاد العرب قبل الإسلام ، وذكر منها الصابئة وعباداتها ، والوثنية ، وأصنام العرب المشهورة ، والثنوية : المانوية والمزدكية .

(٢) الجزء الثاني ، السنة الأولى (٢ شوال ١٣٤٤ ـ ١٥ نيسان ١٩٢٦) وفيه ثانية محاضراته هذه في ٢٠ صفحة ، وقد تحدث فيها عن التناسخيّة ، والدهرية ، واليهودية وعقائد اليهود في بلاد العرب ، والصدوقية ، والعنانية ، والمشكانية ، والمقاربة ، والسامرية ، والنصرانية : الأبيونية ، والمركونية ، والبرديصانية ، والأرارسة ، والنسطورية ، والنيقولاوية ، والمونتانوسية ، والولزية ، والسيبليسيونية ، والماناتيوسية ، والسمساطية ، والبيلازيونية ، والافتيخيوسية ، والفنوستيكية .

(٣) الجزء الثالث ، السنة الأولى (٥ صفر ١٣٤٥ ـ ١٥ آب ١٩٢٦) لم ينشر له فيه شيء . وكذلك الجزء الرابع (٢٨ رمضان ١٣٤٥ ـ ٣١ آذار ١٩٢٧) ، والجزء الخامس (١ ذي الحجة ١٣٤٥ ـ ١ حزيران ١٩٢٧) .

(٤) الجزء السادس ، السنة الأولى (١ المحرم ١٣٤٦ ـ ١ تموز ١٩٢٧) ، وهو خاص بمحاضراته في حكمة التشريع (٥٢ صفحة) ، وفي الفلسفة الإسلامية (٤٧ صفحة) . ومضامين محاضرات الفلسفة الإسلامية التي تمم بها ما سبق ، هي : « قال : خاصة بالصف الثاني » .

دين الإسلام ، فلسفة العرب ، مواطن العرب ، العناصر

المتولدة من العرب ، استيلاء الأجانب على العرب وتأثيره ، ما استفاد العرب من الأجانب ، أديان العرب : الطوطمية ، الصابئة : فرقها ، عباداتها ، هياكلها ومعبوداتها . وثنية العرب : تعليل وجود الوثنية في بلاد العرب ، أصنام العرب المشهورة ، طريقة اتخاذ العرب الأوثان ، الغاية من عبادة الأوثان . الدين عند قدماء المصريين : تشخيص ذات الله ، خرافات المصريين ، تقديس الحيوانات ، التثليث عند قُدَماء المصريين ، لاهوت الكلمة وانبثاقها من الله . عقيدة الفداء والقتل والصلب . التقمص والتناسخ عند المصريين ، اليهودية : اليهود أو بنو إسرائيل ، اليهود في الحجاز ، اليهودية فكرة قومية ، التعاليم والعقائد اليهودية في بلاد العرب ، الوصايا العشر ، الشرائع السياسية : المحاكمة ، حقوق العبد ، أحكام الأنكحة . العقوبات : القتل ، القصاص بعين الذنب ، الدية ، الجَلْد ، السرقة ، الزِنا ، عقوبات عمومية . الأوامر والنواهي والآداب : الشرائع الطقسية . القسم التاريخي من التوراة ، الإنسان الأول ، حالة اليهود في بلاد العرب . فلسفة اليهود . انقسام اليهود . طوائف اليهود وفرقها : الصاديكيميّة ، السحرة ، الفريسيون ، الآسينيون .

وعرض في محاضرات حكمة التشريع لما يأتي : العرب

قبل الإسلام ، حالة العرب الاجتماعية ، حاجة العرب الى الدين ، نبوة محمد ، دين الإسلام ، القوانين : الشرائع الإلّهية ، التطور في الأحكام والقوانين . الإيمان : عناصر الإيمان ، الصلاة : تأثيرها المادي ، تأثيرها المعنوي : النظافة وفلسفتها ، الماء الطهور ، الغسل والوضوء الخ ، الحكمة في غسل اليدين ثلاثاً قبل إدخالهما في الإناء ، المضمضة والاستياك وحكمتهما ، الاستنشاق والاستنثار وحكمتهما الخ ، التطيب والتزين ، الحكمة في استقبال القبلة ، الحكمة في التوقيت ، أثر الصلاة في الجسم والنفس ، التربية العضوية ، الحكمة في صلاة الجماعة . حكمة الإمامة ، الحكمة في ترتيب الصفوف ، الحكمة في فرض اللغة العربية في الصلاة ، التربية النفسية في الصلاة : الهداية : هداية الروح ، بحث في الروح ، الحكمة في أداء الصلاة ، الحكمة في التكبير ، الحكمة في السجود . الزكاة : رأي الاجتماعيين في انحصار المال ، تغليب المال على الدين ، تكثير الثروة في نظر الإسلام ، مضارّ الاحتكار ، الحَلُّ الإسلامي للمعضلة المالية ، الطريقة القديمة في وضع الضرائب ، نظرية الإسلام في الضرائب ، الزكاة في اصطلاح الشارع ، فرض الزكاة ، أصناف الزكاة ، النهي عن إمساك الزكاة ، حق المصالح العمومية في

المال عدا الزكاة ، الأوقاف مشروع تعاوني لمصلحة الدولة .
الصيام : مشروعية الصيام في الأديان القديمة ، مشروعية الصوم في الأديان الإلَهية السالفة ، حكمة الصيام في الإسلام ، تأثير الصوم في الأخلاق ، فوائد الجوع والحِمْيَة ، بدع الصيام .
الحج : فرض الحج ، الحكمة في الحج ، أيام الحج ، الحج فرض مرة في العمر ، أركانه وشروطه وسننه ، الحقوق الوطنية في الإسلام ، الحكمة في رمي الحجارة .

حكمة التشريع في الصنف الثالث : المعاملات ـ الوفاء بالعقود ، وضع الوثائق ، نظام الكتابة ، نظام الشهادات ، الكفالة المالية ، الحكمة في النهي عن أكل أموال الناس بالباطل ، مشروعية التجارة ، المال المباح أكله ، أصناف المعاملات المحرمة : الربا في نظر الإسلام ، الربا في الجاهلية ومذاهب العلماء فيه ، الحكمة في منع كتم الشهادة ، الوصية وحكمها ، حِكم الوصية ، ما تصح به الوصية بحسب الزمان والمكان ، اختلاف رأي الجمهور والإصلاحيين في الوصية ، منع تبديل الوصية ، متى يجوز التدخل في منع الوصية ولمن يرجع الحق في ذلك ، المواريث : التوريث عند الجاهلية وأسبابه ، النظام الوقتي للإسلام في التوارث ، النظام الدائم للإسلام في التوارث ، الورثة في نظر الشريعة الإسلامية ،

الحكمة في جعل الأنثى الوحدة القياسية في الإرث . نصيب الأصول : الأبوين ، الحكمة في جعل السدس نصيباً للأبوين مع وجود الولد والتساوي بينهما ، الحكمة في جعل الثلثين للأب والثلث للأم عند فقد الولد ، الحكمة في حجب الإخوة الأم من الثلث الى السدس . الحكمة في جعل أنصبة الأصول أقل من أنصبة الفروع في الميارث. إرث الأبوين مع الزوج، الحكمة في تقديم الزوجين بالإرث على الأبوين ، فرائض الزوجين : الحكمة في جعل نصيب الزوج النصفُ عند فقد الولد والربع مع وجوده ، ميراث الكلالة .

(٥) الجزء السابع ، السنة الأولى (٣ ربيع الأول ١٣٤٦ ـ ١ أيلول ١٩٢٧) ، وفيه تتمة محاضراته في الفلسفة الإسلامية (٥٤ صفحة) ومضامينها هي : العنانية ، المقاربة ، اليهود بعد خراب الهيكل ، بارهيتي ، حكاية الرِبيّ حفيد حنا ، حكاية الربي سفراء ، البهموت ، نهر السبت ، حكاية عوج ، أحكام التلمود ، سبب إخفاق اليهود في بلاد العرب ، المجوسية : رأي فلاسفة المجوس في المادة التي حدثت منها الظلمة ، رأي متكلمي المجوس في الموضوع ، الكلمة والفادي والمخلص ، المذاهب المجوسية المشهورة ، السبب في تسمية هذا الدين بالمجوسية . الزرادشتية : كتاب زرادشت وتعاليمُه ، الإآله

وأفعال العباد واليوم الآخر ، متعبدات المجوس قبل ظهور زرادشت . اتخاذ زرادشت الهياكل والأوقات للعبادة ، صعود زرادشت الى السماء وإتيانه بالنار المقدسة ، حياة زرادشت : ادعاؤه الرسالة ، إحراق الإسكندر المقدوني مكتبة اصطخر الثمينة ، التنقيب عن الوستا وشرح تعاليمه ، انتحال العرب لهذا الدين ، انقراض الزرادشتية ، دفن الموتى عند الزرادشتيين . الثنوية ، الفرقونية ، الصلح بين الرب والشيطان . التناسخية : منشأ القول بتناسخ الأرواح ، الجزاء عن الأعمال ، شيوع عقائد التناسخية بين القدماء ، التناسخ عند الهندوس ، المزدكية : عقائد المزدكية ، فلسفة مزدك ، معبود مزدك ، الدهرية . الديانة اليونانية : آلهة الدرجة الأولى ، الأعوان الجبابرة ، طرد جوبيتير لأبيه وصنع النوع البشري ، أولاد جوبيتير ، آلهة البحار ، مملكة النيران السفلية وأوديتها ، إلّه الثروة والغنى ، آلهة الأرض ، آلهة الدرجة الثانية ، الأعياد والملاعب اليونانية . الطقوس والعبادات عند عامة اليونانيين عقيدة التثليث عند اليونان ، عقيدة الفداء والخلاص عند اليونانيين . سبب ظهور بخوس بن المشتري من العذراء سميلة . الديانة الرومانية : عبادة الأرواح ، التثليث عند الرومان ، الإلّـه الأكبر عنـد الرومان ، الهياكل الرومانيـة ، وظائف الكهنـة ، أصحاب

التنجيم والمبصرون، أجرة العبور بأرواح الموتى من نهر الموت، حرق الموتى، اتخاذ النفوس البشرية قرابين للأموات، اعتقاد الرومان بتأثير عظمائهم في المظاهر الكونية. إلاه الرومانيين المنبثق من الشمس، الصليب عند الرومان. النصرانية: الأناجيل المقدسة، دعاة المسيحية الأولون، امتزاج النصرانية بالرومانية. الغنوسيوسية. الدين ليس بصنع آلهي، منع الزواج وحظوظ النفس، الروستينية، الأبيونية، إنكار انبثاق المسيح من روح القدس، النيقولاوية، الماركونية، عقائد ماركيون، الوجينية، البرديصانية، الساجيوسية، السمساطية، المونتانوسية، الولوزيونية، الدوستية، الكرناثوسية، الأريوسية، الخلاف بين أريوس ومطران إسكندرية، انعقاد المجمع الا سكندري لمحاكمة أريوس. التشهير بأريوس، قرار المجمع النيقاوي، صورة الإيمان الكاثوليكي، انتشار مذهب أريوس في الشرق الأدنى، قيام النبي صلى الله عليه وسلم بحماية الأرارسة، النسطورية، إنكار تلقيب العذراء بوالدة الإآله، تعاليم نسطورس، الإيمان بأن العذراء والدة الله وبسرّ التجسّد، رفض تعاليم نسطورس، الابلاجيونية، إنكار سَرَيان الخطيئة الأولى الى أولاد آدم، الأوطاخيوسية: القول بوحدة الأقنوم والطبيعة في المسيح، الإيمان الكاثوليكي بسر

التجسد . اليعقوبية ، اختلاف النصرانية في ألوهية المسيح وبشريته . المانوية : مزاعم ماني ، مراتب المتدينين ، شرائع ماني الاجتماعية ، وجود النصرانية في بلاد العرب ، خاتمة .

هذا ما وجدته من محاضرات الثعالبي في هذه الأجزاء من مجلة (الجامعة) ، ولم أجد له ولا حرفاً واحداً من بعد في الأجزاء : ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ (الصادرة في ٦ جمادى الآخرة ١٣٤٦ - ١ كانون الأول ١٩٢٧ و ٨ رجب ١٣٤٦ - ١ كانون الثاني ١٩٢٨ و ١٠ شعبان ١٣٤٦ - ١ شباط ١٩٢٨ و ١٠ شوال ١٣٤٦ - ١ نيسان ١٩٢٨) .

وكان الثعالبي الى ذلك مثابراً على تدوين مذكراته التي أشرت اليها من قبل ، وكان يواصل جريدة الشورى في القاهرة برسائل أسبوعية بامضاء مستعار ، أو برمز ع ، لا أتذكره الآن جيداً ، وفي الإمكان التعرف الى طبيعة هذه الرسائل بالرجوع الى جريدة الشورى . وقد نشرت له جريدة (الجامعة العربية) التي كان يصدرها الاستاذ منيف الحسيني في القدس خطبته التي ارتجلها في حفلة افتتاح المؤتمر الإسلامي العام في جامع عمر بالقدس ليلة ٢٧ رجب ١٣٥٠ هـ .

- ٦ -

وذكرت حفظك الله ، أنك لم تجد عن الثعالبي شيئاً مدوناً غير مذكرة مختصرة . ويحضرني الآن من مراجع الكلام عليه ما يأتي :

(١) الأعلام ، للزركلي ، الطبعة الثانية .

(٢) الأعلام الشرقية ، لزكي محمد مجاهد ، ١/ ١٤٨ (رقم الترجمة ١٩٠) .

(٣) الدول العربية المتحدة ـ ج ٣ .

(٤) ثلاثة رجال ، لمحمد لطفي جمعة : الأفغاني ، الكواكبي ، الثعالبي . مجلة الحديث ١١/٦٥ .

(٥) مصادر الدراسة الأدبية ليوسف أسعد داغر ٢/٢٤٣ .

(٦) تاريخ الكويت ، لعبد العزيز الرشيد .

(٧) كتاب الحركة الأدبية والفكرية في تونس ، لابن عاشور ، من مطبوعات معهد الدراسات العربية العاليـة ، وقد أفاض في الحديث عنه في مواضع كثيرة .

(٨) المغرب العربي ، لعلال الفاسي ، من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية .

(٩) ديوان الرصافي ، طبعة بيروت .

ويحسن الرجوع الى محمد علي الطاهر صاحب جريدة الشورى ، فانه كان وثيق الصلة به ، وعنده أخبار كثيرة عنه ، والى من بقي من رجال حزبه في تونس وغيرهم من أصدقائه وذوي قرابته ؟

محمد بهجة الأثري

الثعالبي التونسي في بغداد

للاستاذ محمود العبطة الحسامي

كانوا يتحدثون عن هذا الزائر الكريم الذي حطّ في أم العواصم بعد أن شرق وغرب وصاول المستعمر ونازل الدخيل ، وكانوا يكبرونه ويقفون له قياماً ويفسحون له الطريق عندما يخرج من داره في محلة (البقچة) في بغداد القديمة ، فيلمحون طربوشه القصير ذا اللون الأحمر القاني الذي وضع كيفما اتفق على رأس ضخم ، وتتحول الأنظار رأساً الى وجهه العريض الواسع بقسماته المنسجمة بعينين وديعتين يتطاير منهما كهرباء الذكاء وكان يجيب تحية القوم المعجبين الذين قاموا له من المقاهي التي كانت تملأ الساحة الكبيرة في محلة البقچة ، وقد أحضروا له عربة توصله الى الأعظمية حيث كان استاذاً لأول جامعة في بغداد بعد تأسيس الحكم الأهلي . لقد رأوه عن كثب وشبعوا من متعتهم بشخصه المهيب بخاصة لحيته الجميلة التي

اختلط (رزّها بماشها) كما يعبرون باصطلاحهم المحلي ، وكانت في يده عصا طويلة هي رفيقته الأمينة في حلّه وفي ترحاله وفي مجالسه ، وحين ارتقائه اعواد المنابر ولم تكن تترك يديه إلا حين القائه الدرس وفي ذلك معنى بعيد . . . ويصعد العربة فيشغل المقعد الذي يكفي ثلاثة أشخاص ، وتسير به العربة على مهل ، ويأخذ الناس في الحديث عن ضخامة جسمه ومتانة تركيبه وكيف ان العربة هبطت عندما صعد اليها .

هذه لوحة صغيرة عن حياة الزعيم الكبير الشيخ عبد العزيز الثعالبي التونسي في بغداد عندما كان يقوم بتدريس الفلسفة الاسلامية على تلامذة جامعة آل البيت ، الجامعة التي تأسست في أواسط آذار عام ١٩٢٤ والتي أعدّ لها كبار الاساتذة وشيوخ العلم والأدب في دار السلام وعهد في ادارتها وعمادتها الى الاستاذ الكبير المرحوم (فهمي المدرّس) وكان نصيب المرحوم الاستاذ الثعالبي تدريس الحكمة على طلابه النجباء في الجامعة المشار اليها . لقد حدثني عدد كبير من طلاب الثعالبي في الجامعة الأولى عن حيويته ونشاطه والمامه بموضوعه وعن ذلاقة لسانه وقوة شخصيته وملكة الخطابـة عنده وانه كثيراً ما يعرج الى السياسة العامة وأعمال الفرنسيين في بلاد العرب خصوصاً في وطنه تونس وفي المغرب العربي وفي سورية ولبنان كما ويعكس

لهم مشاهداته في البلاد التي جال فيها من تركيا الى الهند الى أقطار الجزيرة العربية ومصر وغيرها وأفاعيل الاستعمار الغربي في تلكم الأقطار ، ولا ينسى طلابه ولعه بتدخين الشيشة (النرجيلة) في ساعة الفرصة والفسحة عن الدرس ، كما لا ينسون سرعة بديهته وقوة حجته ، وقابليته على المحاججة والمناقشة والاقناع ويضربون أمثلة كثيرة في هذا الشأن لا مجال لتعدادها وتكفي الاشارة اليها ، وقد نشرت محاضراته في مجلة (جامعة آل البيت). كما كانت خطبه ومقالاته تنشر في صدر الصحف العراقية في سنوات ٩٢٥ و٩٢٦ و٩٢٧ و٩٢٨ . . الخ . .

وينعت كاتبها باسم الرحالة التونسي أو الزعيم التونسي الشيخ . . وما شابه ، وبعد غلق باب الكلية عين بوظيفة مفتش أو ما شابه هذه الوظيفة وقد بث في الوزارة روحاً جديدة تدعو الى اعتناق مبدأ العمل والنشاط دون التعلق بالخيال والغرور الزائف ،وكمثال على ذلك تقريره الشهير الذي لا يزال دائراً على ألسنة المحافل العلمية في بغداد ، وخلاصته انه فاجأ مدرسة أهلية (يهودية) بزيارة لأحد صفوفها فرأى الطلاب يدرسون درساً في مسك الدفاتر التجارية (بلانجو) فأكبر الفكرة ، وأراد مفاجأة مدرسة (رسمية) بزيارة مقابلة فدخل أحد الصفوف فرأى

طالباً ينشد قصيدة أولها : سواي يهاب الموت أو يرهب الردىٰ
وهو يشير ويؤشر ويمثل وينفخ صدره ، وكان المعلم يستحسن
والطلاب يهتفون ويصفقون !

وصل الشيخ عبد العزيز بغداد في عام ١٩٢٥ وقد سبقت شهرته وصوله الى العاصمة العراقية ومواقفه الجريئة ومناجزاته للاستعمار الفرنسي في تونس وفي المغرب العربي ، وكونه مبعداً عن وطنه تونس من قبل المستعمر الغاشم وكونه خطيباً ذلق اللسان ومجاهداً صلب العود ، ومثقفاً يشهد له الجميع ، وصل بغداد بعد جولات طويلات في بلاد العرب وفي أقطار المسلمين مطالباً بحق بلاده لدى الرأي العام في تلكم الأقطار، اذ كان يهدف الى اثارة الشعوب الى أفاعيل المستعمر في وطنه العزيز وقد رحبت به رجالات البلد وصحافته وأقيمت له حفلة تكريمية كبرى القيت فيها الخطب والقصائد معددة مناقبه ومواقفه وكان فارس الميدان شاعر العراق والعرب المرحوم الاستاذ معروف الرصافي الذي وصفه أحسن وصف في قوله : ـ

فتى صلحت عزائمه وجلّت ... عن الرّوغان في طلب المرادِ
فأوغل في المفاوز والموامي ... وطوّف في الحواضر والبوادي
وكان طوافـه شرقـاً وغربـاً ... لغير تكسب وسوىٰ ارْتفادِ

ولكن ساح لاستنهاض قوم حكوا بجمودهم صفة الجماد
يغار على العروبة أن يراها مهددةالمصالحبالفسادِ . .الخ

وقد اتخذ له منزلاً في أرقى مناطق العاصمة في محلة البقجة كما أشرنا في أول الكلمة ولا تزال هذه الدار قائمة وتشغلها مطبعة جريدة (الزمان) البغدادية وهي تقع مقابل دائرة اسالة الماء في زقاق ضيّق لا يحوي غير هذه الدار ، وكانت هذه المحلة والمحلّات المجاورة لها كالصابونجية والبارودية والحيدرخانة كانت تضمّ بيوت السراة والوجوه والوزراء والأدباء وكبار العسكريين. وتكاد أن تكون دار الثعالبي في قلب هذه المحلات المهمة في بغداد . انه كان يقيم في داره المذكورة ويعد طعامه بيده حيث كان يجيد الطهي على الطريقة التونسية وذلك انه بعد انهاء عمله الرسمي في الجامعة أو في وزارة المعارف يخلد الى داره ويتغدى وبعد العشاء يراه السائر في (شارع الرشيد) بطربوشه المغربي وعباته التونسية وقامته وهيبته التي لمحها القارىء في أول هذه السطور ، يراه قاصداً دار صديقه المرحوم الاستاذ طه الهاشمي العسكري الكبير وزميله في الجامعة حيث كان يدرس تاريخ الأديان أو دار الاستاذ فهمي المدرس . أو دار الشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي . او فندق الهلال حيث كان يقيم الشاعر الكبير الاستاذ الرصافي .

ولا حاجة الى القول الى كسب الثعالبي احترام الطبقة المثقفة في بغداد ، وانه كان زينة المجالس التي يحضرها وكان يسحر السامرين بحلو حديثه ودقيق استنباطاته وصائب آرائه ، وقد أسهم في النشاطات العامة إسهاماً لا تفي حقه هذه الكلمة .

حدث توتر بين الشاعرين الكبيرين الرصافي والزهاوي وحار القوم في طريقة يعود بعدها الصفاء بين الشاعرين المحترمين ، وبعد أن أعياهم الحل رجعوا الى الثعالبي فوجد طريقة طريفة هي دعوة الشاعرين الى بيته الى أكلة تونسية فلبيا الدعوة وتعانقا وأكلا وعاد الصفاء الى أحسن حال . وخير ما نختم به الحديث عن هذه الشخصية اللامعة الكريمة التي أحرقت مواهبها وأفنت شعلة شبابها خدمة لقضية الوطن الكبرى وقضية العرب أجمعين وقضية العدالة الانسانية . . خير ما نختم به هو قصيدة شاعر العربية العظيم الاستاذ معروف الرصافي التي قالها في « حفلة التأهيل والترحيب بالزعيم التونسي الكبير عبد العزيز الثعالبي » (الديوان . الطبعة الثالثة ص ١٣٤) ولا بد من الاشارة والتأكيد الى سؤال كاتب المقال للرصافي عن درجة معرفة المرحوم الشاعر العظيم بصديقه الزعيم التونسي ، اذ قال لي في صيف ١٩٤٣ في المقهى الواقع الى جانب داره في (الاعظمية) ، ان معرفته بالثعالبي تمتد الى ما قبل الحرب

الأولى وذلك في اسطنبول وانهما قليلاً ما يفترقان في تلك المدينة ، وان قصيدته كانت من وحي تلك العشرة الحميمة ؛

(أتونس) ان في (بغداد) قوماً
ترفّ قلوبهم لك بالوداد
ويجمعهم وإياك انتسابٌ
إلى من خُصَّ منطقهم بضادِ
ودين أوضحت للناس قبلاً
نواصع آيِهِ سبل الرشادِ
فنحن على الحقيقة أهل قربى
وان قضت السياسة بالبعاد

وما ضرّ البعاد إذا تدانت
أواصر من لسان واعتقادِ
وان المسلمين على التآخي
وان أغرى الأجانب بالتعادي

أتونس ان مجدك ذو انتماءٍ
إلى عليا (نزارٍ) أو (إيادِ)
لنا (بثعالبيك) خير مُلقٍ
على أشتاتنا حبل اتحادِ

وأكبر حاملٍ بيد اعتزامٍ
لحب بلاده علم التفادي
وأسمى من سمى أدباً وعلماً
وأفصح من تكلّم عن سدادِ
دع القول المريب وقائليه
وسل عنه المنابر والنوادي
تجده خطيبها في كل خطبٍ
ومدرهها لدى كل احتشادِ
فتى صلحت عزائمه وجلّت
عن الروغان في طلب المزاد
تغرّبَ ضارباً في الأرض يبغي
مدى من دونه خرط القتاد
فأوغل في المفاوز والموامي
وطوّف في الحواضر والبوادي
وكان طوافه شرقاً وغرباً
لغير تكسبٍ وسوىٰ ارتفاد
ولكن ساح لاستنهاض قوم
حكوا بجمودهم صفة الجماد

يغـار على العـروبـة أن يـراهـا
مـهـددة الـمـصـالـح بـالـفـسـاد

فـأنـى سـار كـان لـه هـديـرٌ
يـهـزّ دويّـه أقـصـى الـبـلاد

وكم قـد قـام في نـادٍ خـطيبـاً
بمحكمـة المقـاصـد والمبـادي

تـنـيـر بـكـهـربـائي الـمـعـاني
أمـوراً كنّ كـالـظلم الـدءادي

تـحـل مـن الـقـلوب إذا وعـتـهـا
مـحـل الحـبِ من شـغـف الـفـؤادِ

الـى أن جـاء حـاضـرة نمـاهـا
أبـو الإنماء ذو الشـرف التـلاد

فـكـان نـزولـه فـي سـاكـنـيـهـا
نزول الماء في المهـج الصوادي

فيـا (عبـد العـزيـز) أقم عـزيـزاً
بـحـيـث الأرض طـيـبـة الـمـراد

يـحـيـيـك (الـعـراق) بـسـاكـنـيـه
تـحـيـة مـخلصٍ لـك فـي الـودادِ

بغداد ١٤/١١/٦٢ **محمود العبطة الحسامي**

الباب الرابع

شخصية الثعالبي

أولاً : الثعالبي شخصية عملاقة .
ثانياً : الثعالبي في تقدير اعلام العصر
ثالثاً : العودة الى الوطن

الفصل الأول

الثعالبي : شخصية عملاقة

رجل طويل القامة عظيم الهامة يرتدي السواد له جمجمة ضخمة واسعة الساحة رحبة التلافيف ولحية صغيرة قد وخطها المشيب اجمل ما فيه نظراته وراء عويناته عيناه مملوءتان بالعطف والاخلاص والمحبة والصدق ، صوته عذب جميل يلين ويشتد ذلك هو الثعالبي: «عالم» من اعمق العلماء فهماً للاسلام وعقائده وشريعته ، و« اديب » له شعر وبيان و« خطيب » مصقع يهز القلوب ، و «سياسي» يفهم مناورات الساسة والمستعمرين وكيف يفنّد خططهم ويدحر مؤامراتهم و « صحفي » يصنع الاخبار وقد أصدر عدداً من الصحف و« رحالة » ذهب الى ابعد اجزاء العالم الاسلامي ودرس قضاياه و« مؤلف » له عدد من الكتب و« كاتب » كتب عشرات الفصول في الصحف الاساسية وله « رسائل » الى اصدقائه واعلام المسلمين و« مؤتمر » مرن

اشترك في عدد من المؤتمرات الاسلامية وكان عضوا عاملا في المؤتمر الاسلامي في القدس .

ونحن حين نسمع الثعالبي يتحدث نعرف ابعاد هذه الشخصية العملاقة : يقول في محاضرة جامعة : ان تأثير الروح العربية في حضارة الاسلام يقع في متناول العقل ولكن العلم يحار في تعليله وقد كانت الامة العربية قبل ظهور الاسلام امة ضئيلة مستكينة ، فلما ظهر النبي انقلب هذا الوضع فصارت الجماعة البسيطة امة قوية ترفرف بسلطانها على بقاع العالم القديم . ومن الانصاف ان نقرر ان الامة العربية الاسلامية لم تحتل على نشر الدين بحيلة من الحيل وانما هي تركت الناس لوجداناتهم فانضووا تحت لوائها لما تبين لهم اخلاصها وانصافها على نحو ما يرويه التاريخ عن الخلفاء والامراء في جميع الجهات الاسلامية .

ولقد كانت الامم الواقعة تحت حكم العرب تشعر انها حرة في تجارتها وزراعتها وفي كل مرافقها ، بل لقد شعرت الامم التي بسط الاسلام عليها سلطانه انها كانت قبله مسترقّة فاسعدتها الحرية ومظلومة فشملها العدل . ولكن اعداء الاسلام يدعون ان القوة هي صاحبة الشأن في انتشاره ، ولقد ازدهرت الدولة

العربية اجلا قصيرا ثم قامت الدولة العباسية وهي ليست بالعربية الصميمة ثم صوحت زهرتها قبل ان يمد لها من الاجل ما يكفيها لتنظيم امبراطوريتها ولكن روح العرب لم تنقرض بانقراض الملك ، بل لقد اشتدت بانقراضه واذا نحن نظرنا الى اللغة العربية وشيوعها من الهند الى الروسيا تساءلنا عن السبب في هذا الذيوع الغريب بلا قوة ولا عنف ولا دعاية ولكن السبب الثابت المستفيض هو ان ذلك انما كان بالنور الالهي الذي يغمر القلوب بالاسلام .

لم يستعمر العرب وانما كانوا هداة يمتزجون بالناس ويحسنون اليهم فاستمالوهم لخدمتهم والسعي الى مصالحهم وبذلك وحده انتشر دين الله الحنيف فاذا نظرنا الى الهند أدهشتنا اعمال اهله في سبيل رفع كلمة الله . ولكنا في مصر لا نرى أثرا من جهاد الهنود لاننا نكل الامر الى حكوماتنا ولكن روح الاسلام الساحرة لا تموت والقرآن يكفلها باعجازه وبيانه .

لماذا المسلمون متأخرون مستكينون :

الجواب ان للحياة المادية نظامها وللحياة المعنوية نظامها هي الاخرى فان الاجسام اذا لم يعن بها تعرضت للجراثيم ووردت موارد التهلكة وكذلك الحياة المعنوية اذ لم توق شرور

الجراثيم، كان الهلاك آخرتهـا ونحن مكلفون بـادمان التفكيـر والاصلاح فاذا احسنا كان ذلك لانفسنا على ان العابثين بعقائدنا قد لجؤوا الى العلم يحاربوننا به فكان هذا سبباً قوياً في فشلنا ، ونحن انما فشلنا بمحضِ اختيارنا .

من الخطأ ان نفصل بين العلم والعقيدة وديننا حق يتطابق مع كل سر من اسرار الكون .

وفي موقف آخر يتحدث الثعالبي : رداً على دعوى القائلين بأن الاسلام قام معتمدا على السيف قال لقد لعب الدين الاسلامي العظيم في التاريخ دوراً لا يدانيه في اهميته شيء، لعب هذا الدور وهو المنبعث من امة عديمة الطول والحول ، لا يخطر ببال امرىء ان يقوم بما قامت به ولا يجري ببال احد ان تبسط حجتها على العالم . على ان النبي لم يغز كما يقولون وليست حروبه مما يصح ان يطلق عليه لفظ الغزوات فانما كانت تقوم حروبه في سبيل الدفاع ولانقاذ العرب الذين وضعت فارس يدها عليهم .

ان الامة العربية قد وضعت يدها على العالم المحيط بها وطبعته بالطابع الاسلامي وهي الدولة البسيطة في كل شيء، إذا نحن التفتنا ناحية البربر نجد انهم انما دخلوا في دين الله من تلقاء انفسهم دون وعد او وعيد فقد نشره حسان بن النعمان في

شمال افريقيا بوسائل عقلية محضة حتى انتشر هناك على مر السنين واصبح الناس مسلمين بلا سيف .

وبمثل هذه الوسيلة اسلم البربر في شمال افريقيا والمسلمون في الهند وان من اعظم الادلة على انتشار الاسلام في الهند بالاختيار المحض ان عدد المسلمين في الاقاليم الهندية التي لم تؤسس بها دول اسلامية هم مائة في المائة من السكان . أما كيف انتشر الاسلام في الهند فقد كان ذلك بفضل دعاية العراق وقد انتشر الاسلام في ملقا التي لم يدخلها جندي اسلامي واحد . واذا حدثتك عن جزر جاوة التي يسودها الاسلام مع استعمار الغربيين لها والتي انتصر فيها هذا الدين العظيم على الاستعمار في كثير من المعارك اذا حدثتك كيف دخل الاسلام قلوب اهلها سمعت العجب فقد ذهب اليها ثمانية من المغاربة وهناك اسسوا مسجدا وضعوا فيه آلات الطرب واشترطوا على كل داخل للاستماع ان يؤدي فريضة الصلاة وبعد ان ينتهي الرجل من الاستماع ينزل الى بركة معدة ليغتسل ثم يذهب للصلاة . وبهذه الطريقة عم الاسلام جاوة وعمر قلوب ابنائها .

كان دخول الاسلام بريئاً من اكراه الناس واجبارهم فالى

تسامحه يُعـزى بقاء الاديان الاخرى وامانها وشأنه في ذلك شأن المدنيات الكبيرة يتسع صدرها للمدنيات الصغيرة جميعا .

والغربيون يدعون ان الاسلام دين السيف ولا يكتبون عن بينَة ولا انصاف ولكنهم يتخذون من كتاباتهم وسائل للتضليل وهدم دين الله يركبونها مطية للاستعمار وقد ملك المسلمون جزءاً كبيرا من اوروبا واقام الاسلام هناك اعواما عديدة ولم يعتد في يوم منها على عقائد الاوروبيين . غير ان الذي يؤسف له ان بعض ملوك المسلمين قد اعتدوا على الاسلام اكثر مما اعتدى عليه الغربيون فقد كان المعز في مصر يحرض ملوك النصرانية على ديننا الحنيف وكذلك كان الاشرار منا يهدمون بينما كانت اوروبا تنشر الدعاية ضدنا فأنتج ذلك الحروب الصليبية ولكنا قهرنا هؤلاء المعتدين وطردناهم من ديارنا واوقفناهم عند حدهم ، اننا خدعنا ولكنا نريد ان نجعل لهذا الخداع حداً ، نريد ان نتوقف عن حفر مقابرنا بايدينا فلنعمل لحقنا ولنحذر داء غيرنا .

وفي مجال آخر من مجالات القول يتحدث الثعالبي فيقول :

ان العالم في ازمة عظمى ولكن الازمة التي يعانيها الشرق

عامة اعظم واشد من التي تعانيها الامم الاخرى وان كانت تلك الازمة هي بيت الحرب الكبرى التي استفادت منها ممالك اوروبا فاننا نحن الشرقيين الذين دفعنا ثمن الحرب وضاعت علينا فرصتها وفقدنا ثمرتها التي لم نستطع الانتفاع بها في أثناء اشتعال نارها يحسن بنا أن نتعظ بحوادثها ونتعلم دروسا منها .

ان العالم يتأهب لثورة ، ولكن الثورة الحمراء لا تنفعنا ، لا فائدة لنا الا من الثورة البيضاء ، ثورة العلم والفكر والادب والحضارة فان الحرب الحقيقية ليست هي التي تهـرق الدماء بل هي حرب العلم والاقتصاد والمدنية وهي التي يجب على الاسلام ان تنتصر في معاملها . اريد حين اذكر الاسلام لا اقصد المعتقدات الدينية بل اقصد المدنية الاسلامية او الحضارة العربية التي نشأت وترعرعت في الاسلام وعاشت اجيالا في احضانه فان الاسلام قد آوى اديانا ومعتقدات كثيرة وأنّى اتجهت في العالم الاسلامي تجد مذاهب مسيحية ويهودية ووثنية . وكل ابنائها يعيشون آمنين في كنف الاسلام ولكنك اذا ذهبت الى اوروبا المتمدنة التي لا تدين بالاسلام لا تجد عقيدة اخرى تطلبها غير المسيحية . انهم كذبوا حين أطلقوا على انفسهم وصف امبراطوريات اسلامية وهم يقصدون انهم يحكمون اعظم عدد

من المسلمين فهم يـذكرون المسلمين في معـرض الذل والخضوع للغاصب ان اوروبا المستعمرة ظالمة ونحن الشرقيون مظلومون ، وان لا امل لنا في النجاة من كيدهم ان لم نسلك مسلكهم فهم قد ضموا صفوفهم ونظموا خططهم فيجب علينا ان ننظم صفوفنا ونضع خططاً تعادل خططهم حتى تتعادل القوى لدى النزال . اما ما دامت كل امة منقطعة عن اختها وجاراتها من الامم الاخرى فلا امل لها في النجاة لان المنفرد الوحيد لا يمكنه ان يفوز على المجتمع المتحـد المتضامن ولا نجاح لنا الا في تضامننا واجتماع كلمتنا واتحاد صفوفنا .

انكم ايها المصريون تفيضون على الشرق العربي نوراً وعلماً وادباً فكتبكم ومجلاتكم وصحفكم هي التي تغذي عقول الشرق العربي من الدار البيضاء غرباً الى تين تسين وشنجاهاي شرقاً .

ان الاحزاب السياسية لن تصيب خيراً كثيراً ما دامت تدور حول نفسها ، وفي اعتقادي ان المصلحة العامة اعظم واهم ، ولا نجاة لامة شرقية ما لم تتحد امم الشرق فاذا اردنا ان نعيش للمستقبل ينبغي ان نستبين الخطأ في طرائقنا وان نصحح خطأنا بتعديل وسائل العمل بالاتحاد والتربية السياسية .

ويقول الثعالبي في حديث له عن امراض العالم الاسلامي :

انطوى العرب بعد ان فقدوا صورة الحكم في جميع الاقطار وذبلت مدنيتهم وتغلبت على لسانهم رطانة الاعاجم واستعاضوا عن ادب القوة والفلسفة الواقعية ، بتلك الرخاوة التي تلازم المرتزقين والمصطنعين عندما يشعرون بالخيبة والانكسار وليس من طبيعة الصائل المتغلب ان يكف عن المغلوب حين يتسلط عليه او يسعفه بانفلات من شركه ، بل يجد في توهينه وتمويعه وإذابة ما كان يتحصن به من اباء وخلق كريم . هذا ما نكب به العرب في جميع اقطارهم منذ تسلط عليهم الاتراك طول عهدهم . ولما جاء تغلب الآريين الغربيين وجدوهم موطىء الرقاب خانعين للاستعباد فقراء النفوس ليس لديهم من الحصانة ما يخففون به عن انفسهم وطأة القادمين فمن يتصدى للقيام بتنفيذ هذه المهمة الشاقة العظيمة والامة كما وصفناها محنية الظهر مثقلة بارزاء الماضي وهي على ما عليه من جهل وفاقة وفقر في الاخلاق والاراء ؟

هل بادية العرب يوكل اليها انقاذ ذلك التراث في العصر الحاضر : عصر الكهرباء والنور وهي لم تزل تتخبط في عصر

الجمال . وقد اضاعت ما كان لها من ميزات قديمة من تعقل وشيم بتأثير التقليد الاعمى وسذاجة الفهم لروح الدين ام نوجه الانظار الى الممالك الاخرى التي بدأت تضطلع بقسطها من التقدم الاجتماعي والسياسي والانتظام في سلك الدول وهو الاقرب الى المعقول .

أما رأيي الخاص فلست ارى لها اهلا غير الجامعات التي تكون لها خطط مدققة في الاحياء والتجديد لا تلك المتزمتة التي لا تخرج غير عقول آلية تتحرك بارادة غيرها ، وذلك لا يتوافر لنا في الساعة الحاضرة الا في مصر والعراق وفلسطين ، ان خرجت من محنتها غير مهيضة الجناح ومع ذلك فلي يقين لا يتزلزل في الرجعة طال الزمان او قصر » أ . هـ .

ولقد كان الثعالبي من اخطب الخطباء اذا تكلم ومن ابلغ الكتاب اذا كتب ، واسلوبه هو اسلوب الدعاة والمربين والمعلمين يهدف دائما الى بناء اجيال جديدة يقظة تعرف حقائق الامور عن بلادها ودينها وتجاهد في سبيل مقاومة النفوذ الاجنبي الذي يحاصرها وتفتدي الفكرة بالنفس والمال .

وقد عمل في هذين الميدانين في وقت واحد فتحدث في كل مجال وكتب في كل ما اتيح له من صحف والف كتبا لتصل

الى الذين لم يسمعوه في الاندية او يقرأوه في الصحف وكان يصدر الصحف التي لا تلبث ان تصادر فلا يتوقف بل يصدر غيرها ، اصدر المنتظر والمبشر وسبيل والرشاد ـ وكان في اسلوبه للدعوة لبلاده في خارج تونس، هو نفس الأسلوب الذي اصطنعه مصطفى كامل ومحمد فريد فقد كان يرى ان اطلاع العالم الغربي على حقيقة البلاد التونسية ونهضتها وتقدمها قبل الاحتلال الفرنسي أمرٌ ضروري لاقامة الحجة على هذا الاستعمار وليكذب الادعاء الذي تردده فرنسا من تأخر تونس وحاجتها الى ان يمدنها الاحتلال . وليكشف كذلك امام اهله العرب والمسلمين هذه الحقائق ، وليدرس ايضا احوال العالم الاسلامي وقضاياه والتحديات التي يوجهها اليه النفوذ الاجنبي في كل مكان ايمانا منه بوحدة هذا العالم وضرورة ترابطه وتكامله في نسق واحد اطلق عليه عصبة الامم الشرقية : هذه الفكرة التي شغلته كثيراً وكانت املاً من آماله الكبرى في بعث الأمة الاسلامية ولذلك فقد جزع اشد الجزع حين سافر الى باريس لحضور مؤتمر الصلح فوجد اعراضا من جماعتين من العرب كانتا قد ذهبتا لنفس الغرض هما سعد زغلول وجماعته عن مصر والامير فيصل بن الحسين وجماعته عن العرب فقد كان الاستعمار البريطاني حريصا على ان يعزل هذه القوى عن

بعضها والحيلولة دون اجتماعها وتكاملها .

وفي مجال التأليف نجد الثعالبي بارزاً .

الف روح القرآن الحرة (وكتبه بالفرنسية) ومعجز محمد رسول الله بالعربية وتونس الشهيدة بالفرنسية هذا الذي اصدره ١٩٢٠ بدون امضاء وصف فيه النظام الاستعماري الذي تعيش البلاد التونسية تحت وطأته ومطالب الحزب الحر الدستوري التونسي الذي أسسه اعيان تونس بالاتفاق معه في شهر حزيران ١٩٢٠ ولقد دبرت له مؤامرة سنة ١٩٠٤ فلما اخرج من السجن الف كتابه (روح القرآن) حرضت عليه الأهالي بتهمة الكفر والالحاد ونقله الى اللغة الفرنسية وطبعه ونشره دحضاً لتهمة الكفر التي اتهم بها ودعا فيه المسلمين الى الاسلام الصحيح ، والأخذ بما يرقيهم ويرفع مكانتهم فأحدث كتابه ضجة بين أعضاء الجالية الفرنسية في تونس فانقسموا حياله قسمين فأيده الأحرار منهم واعجبوا بدعوته وقاومه الاستعماريون وتنكروا له واجمعوا امرهم على مناهضته .

وفي كتابه [معجز محمد رسول الله] يقول : ان المجتمع الاسلامي هو نسيج الرسالة المحمدية فاروني ماذا صنع غيرها من الرسالات : اما بعد فقد خرت الله تعالى في عمل مبرور

ادخره في صحيفتي ليوم النشور ينتفع به المؤمنون ويسترشد به الحائرون . بيد أن حاجة الأمة اليه اوكد ، ومصلحتها في اخراجه اظهر وافيد اذ يطالعها بما خفي من اسرار حياة رسولها الاعظم بعد ان اجهدها الطلق وفاتها الارب ، وهي لا تجد لبغيتها مورداً ولا لما ترومه مساعداً ، اللهم الا واحداً من اثنين لا ثالث لهما : «كتاب اوروبي لا يتحاشى مؤلفه عن الغمز واللمز في صاحب الرسالة العظمى بما ينفثه يراعه في روع قارئيه من وسوسة الحيرة وفتنة الشك تحت ستار البحث العلمي وكتاب عربي اشبه بمنجم من التبر الا انه غير معدن ولا مسبوك والطريق اليه وعر لا معبد ولا مسلوك ، مرتب غير قديم واسلوب غير سليم»، وقال انه مضى سالكاً في النقل مسلك الثقاة من المتقدمين ومعتمداً في التخريج طريقة النقاد المعاصرين ليكون وسطاً بين المذهبين ويقول : هم يحسبون « الاسلام » : تلك الحال العالقة بالمسلمين وبسبب ذلك يصمونه بوصمات غريبة عنه ، ومن ذلك قولهم انه مزيج من المتناقضات افرغت في صور باهتة اللون ، وهو قول هراء بعيد عن الواقع ، وانما هم في الحقيقة يتكلمون عن المسلمين من حيث اصطباغهم باحداث القرون وظهورهم في الصور التي شاهدوهم فيها .

ويقول : وما على الذين يريدون التحري في اظهار الحقائق

العلمية بارزة في جوهرها السامي الا ان يتعرفوا (الى الاسلام) من عناصره لا من سير الناس ، ومن ابرز تلك العناصر واظهرها التكامل والانسجام والقوة والمناعة والبعد عن الالتباس بالمؤثرات الخارجية عنه وحسبه من ذلك انه لم يداخله شيء اجنبي ، ومن دلائل ذلك ان حيويته لم تزل محفوظة بخصائصها واثرها في الهداية والانعاش لمن يدين به في القوات الروحية والجسمية والعقلية والخلقية .

ويقول : لقد كان جديراً بكل من يتصدى للكتابة عن الرسالة المحمدية ان يحلل حياة صاحبها الباهرة تحليلاً فنياً مليئاً بالعبر مع المطابقة بينها وبين روح العصر الذي يكتبون فيه ، لأن رسالته عامة الى جميع العصور يجب ان تفهم في كل عصر بما يناسبه ويلائم طريقة التفكير فيه .

ومرادي الا اكسو الرسالة ثوباً فضفاضاً من الاستهواء كما فعل القدماء ، فقد غالى بعضهم في الكتابة على نمط عصرهم حتى اثقلوها بجملة من الخوارق قد لا تحتملها بقدر ما تسعها عقولهم .

وليس من روعة الدين ان يتصور رسول الله شخصية آلية عارية عن قوة الابداع والابتكار وقراءة الملامح وفهم روح العصر

فهما مطابقا للواقع حتى يحتاج الى شخصية اخرى تلهمه .

ويتحدث عن الرسالة المحمدية وآثارها البعيدة المدى فيقول :

اي خارق اعظم من ذلك التحول السريع الذي احدثته الرسالة المحمدية في نفوس المخاطبين عن محاكاته في ذلك بما فيه من امم ودول . اليس من العجب العجاب ان رجلاً من اوساط الناس يظهر في قوم لا شأن لهم من الأمور العالمية يدعوهم الى غير ما الفوه ، وما كانوا يعتقدون ، فيؤمنون عن طواعية بكل ما دعاهم اليه ويصدقونه ويستمر الاقبال عليه حال كون الملأ من قومه يصدون عن الاستماع له ويسفهونه فيخرج عليهم صامداً لهم يفند مزاعمهم ، ويعطل اديانهم ، ويبطل شرائعهم ، ويزلزل كيانهم وهم اصحاب الطول والحول في بلدهم وبيدهم الحكم والسلطان ومع ذلك فلا يبالي بهم فيعمدون الى التأليب عليه ويجمعون الرأي على منعه ويسعون للاضرار به والنكاية بمن تبعه فيتصدى لقراعهم لا بالجيوش والعتاد ولا بالتكاثر والحشود ، ولكن بقوارع التنزيل ومحكم الايات البينات ، التي تصف نقائض المجتمع وتكشف عن مناحي صغاره ومخابىء عيوبه وتمهد السبيل لاصلاحه وانقاذه من

العاهات النفسية والاجتماعية العالقة بالقوم .

لقد سارت هذه الدعوة الخارقة سير الشمس في محيطها تنير الوهاد والبطاح وتفتح مغاليق البصائر حتى اهتدى العالم بالهداية الالهية في بضعة سنين لا تكفي في العادة لترويض جيل واحد في قرية واحدة مأهولة بالسكان على رأي معين فكيف بالعالم .

هذا : رجل فرد يطل على العالم من آكام الحجاز العارية من النبات ومظاهر النعومة والترف لا يسانده حزب ولا تناصره دولة ولا تذود عنه عصبية ، مجرد عن كل قوة مادية ، ليس له سوى ايمانه بربه ، ويقينه الجازم بصدق ما خرج يدعو اليه فجعل يقرع القلوب بدعوته ويشغل النفوس بايمانه حتى اطاعته الدنيا بأسرها وخضع لأمره سكان المعمورة خضوع ايمان وتصديق .

وفي مجال الرسائل والخطابات تجد ذلك الروح العذب العميق :

كتب الى احمد شفيق باشا بعد عودته الى تونس : (٢١ اكتوبر ١٩٣٧) .

من لي بعدك بمن يسري عني ويحدب علي ويملأ قلبي ارتياحاً وقد داهمتني الزعازع من مهابها واحدقت بي النكباء من كل جانب وفقدت الراحة التي اقنعتني بها مصر في

جوارك وليتها دامت ، فقد كانت اهنأ للنفس من وجودي في وطني بين الاهل والعشير ، وكأني وانا بينهم في اتون مستعر يحرق الضمير لا الاديم . فقد شغلتني احداث السياسة عن اصدقائي جميعاً وعن نفسي أيضاً بحيث صرفني عما يهمني بك وعن كل شيء آخر ، ودفعتني رغم ابائي الى الدخول في حرب ضروس ظاهرها ضد الخارجين على الأمة وباطنها ضد الاستعمار الذي جندهم ضدي وصمد بهم لقتالي ، وكانت الأمة تحسبهم قبل عودتي من شيعتي واعواني . وليس من الهين على امرىء ان يكافح من يعدهم شيعة له واعواناً فقد خدعوا العامة بانتمائهم الي وتآمروا مع السلطة علي ، واشهروا حرباً باغية على الفئة الموالية الباقية في عهدي ، ونفروا منها الدهماء فنفروا معهم وهم لا يشعرون بما يضمر لهم من مكايد . ولم تنقض أيام المهرجان حتى بدا الى الشر عن نواجده ورأيت الجريمة عارية بادية ترتاع منها السرائر فغضبت للحق غضبة مضرية ، واسرعت لخنق الشر في مهده ولو اغضيت لترعرعت الجريمة وانتظمت بلادنا في عقد الممتلكات الفرنسوية ومع ذلك قلت « آمن ولم ابلغ شاطىء النجاة » ولعلك وقعت اخيراً على نبأ الحدث الذي رامت به فرنسا توحيد أقطار شمال افريقية في وزارة واحدة بعد سلخها عن الوزارات الاخرى بالرغم عما في ذلك من نقص

المعاهدات الصريحة الكافلة لذاتية بلاد الحمايات واستقلالها واحتجاجاً على هذا المشروع المنافي للمعاهدات تقابلت يوم الجمعة ١٥ اكتوبر الجاري مع المقيم العام وتكلمنا في الموضوع طويلاً واوضحت له خطورة هذا الحدث واجماع الامة التونسية على استنكاره وعزمها على مقاومته بكل ما اوتيت من جهد .

ويكتب الى الاستاذ محمد القرنواني (٨ يونيه ١٩٣٨) .

اطلعت على الرسالة الكريمة من افق مصر تحمل الي منها الروح والريحان وانا في هذا الجو الحانق ومنها فوق ذلك صورة صادقة من خوالج قلب الصديق .

جئم بي الكائدون العاقون في هذا البلد لا لسبب (بعيد رجوعي) مصارع كي يقذفوني فيها ابتغاء مرضاة الشيطان فلم يقع فيها احد سواهم بعد ان سمموا الضمير العمومي ودهوروا الفكر العام .

ظهر هؤلاء الاغلبية في غفلة الدهر بعد خروجي من الأرض فخدعوا الشعب وهو سهل الانخداع ، سريع الانقياد للدعايات الضالة الكاذبة ومع ذلك فبعضهم من معهم من اوشاب الناس ونفايات الشوارع وحسبوا انهم يقدرون بما جمعوا على ارهابي

ولقد حاولوا قتلي مرتين اثناء حفاوة الشعب لاستقبالي في عاصمتين من عواصم الاقاليم زرتهما في الخريف الماضي ولم تبعد بهم الأيام ، حتى استيقظ لهم الشعب وادرك ثقل اوزارهم علي فأخذ يرتد عنهم ويتراجع الى احضاني .

فوقعت حوادث ٩ ابريل التي بلغتكم على غير وجهها .

أما انا ومن تبعني فقد بقينا ملازمين شرفاتنا نطل من عليائها على هذه المهزلة السخيفة الى ان تنتهي ، وقد ابينا ان تغرب هذه الكارثة فعطلنا جميع صحفنا العربية والفرنسية باختيارنا واغلقنا نوادينا الى ان ينتهي هذا الاعصار ثم نستأنف عملنا الجدي بلا هزل .

وكان الثعالبي عضواً مؤسساً في مؤتمر القدس الذي عقد في ديسمبر ١٩٣١ (رجب ١٣٥٠) وحضره عدد كبير من اعلام المسلمين برئاسة الشيخ محمد امين الحسيني مفتي فلسطين وشارك فيه شوكت علي والدكتور محمد اقبال (الهند المسلمة) ومحمد الحسين آل كاشف الغطاء ومحمد بهجت الاثري (العراق) وابراهيم اطفيش (الجزائر) والبشير السعداوي (طرابلس الغرب) وعبد الحميد سعيد . رشيد رضا ، عبد الرحمن عزام ، التفتازاني ، محمد علي علوبة (مصر) سعيد

الجزائري (سوريا) مصطفى الغلاييني (لبنان) عبد العزيز الثعالبي (تونس) .

وفي مؤتمر القدس كان الثعالبي ـ كما يصفه الاستاذ حامد المليجي محرر البلاغ خطيباً متحمساً فاستعرض التاريخ منذ ظهور الاسلام وتلألؤ قوته الى الحالة التي وصل اليها اهله اليوم ثم ناشد المجتمعين ان يعملوا لاسترجاع المكانة التي كانت لأمتهم فقال : انسوا الماضي ولا تبكوا واعملوا واصلحوا .

ونجد الثعالبي وقد تصدر عدداً من المناصب :

(١) انتدب لمؤتمر الخلافة بمصر عن تونس والعراق ١٩٢٦ .

(٢) انتدب للتدريس في جامعة آل البيت ببغداد .

(٣) الاشراف على البعثة العلمية العراقية ٢٥ ـ ١٩٣٠ .

(٤) اشترك في الرابطة الشرقية منذ تأسيسها .

هذا بالاضافة الى عضوية المجلس الاعلى الاسلامي في القدس .

وقد عمل في الصحافة فانشأ في تونس : المنتظر والمبشر وسبيل الرشاد وجريدة التونسي ، ولما جاء مصر كتب في مختلف الصحف المصرية البلاغ، كوكب الشرق ،

السياسة اليومية ، الوادي والضباء .

ومن أبرز ابحاثه :

(١) التعليم الاستعماري ووضع المحاكم التونسية (نشره في كوكب الشرق) .

(٢) الحركة الاستقلالية في تونس (نشره في الوادي) .

(٣) خواطر في رحلته الى الشرق (الوادي) .

(٤) تقرير الثعالبي عن الهند (البلاغ) .

(٥) احاديث مع الثعالبي وتاريخه وآراؤه (السياسة اليومية) .

(٦) فصول متعددة عن المنبوذين وتونس وغيره (الرابطة العربية) .

(٧) فصول اخرى نشرها في جريدة الشورى .

ومن عباراته وافكاره قوله :

اری اني لست افي بما علي من حق للشرق الاسلامي ان كتمت عنه بعض هذه الحقائق المستفيضة دون ان افضي بها اليه ليتطلع عليها مسيرو النهضات القومية ووطننا جزء من الشرق لا يتجزأ وانا منه في مصر قلبه النابض الحساس بين السمع والبصر .

لقد آن للغرب ان يعلم يقظة الشرق وقوة ارتباطه وان يعرف ان شعوبه كتلة واحدة .

تعلمون ان التربية الحقة المنتجة ليست في الدروس بل في التوجيه وسبك العقلية والفكر وتربية الضمير ، وكانوا يؤلفون الكتب ويقولون فيها ان هذه البلاد هي موطن البربر ثم جاء الرومان فجعلوا منها جنة فيحاء فلما جاء العرب خربوا ودمروا وهم لصوص سلبة ، فأبادوا هذه الجنة واقاموا مكانها الخراب والدمار وهكذا كانوا يعلموننا التاريخ بحيث ان آباءنا لا يعرفون من تاريخ الاسلام والعرب غيره واذا تمكن احد من تعلم شيء خارج المدرسة عن دينه وقومه ثم اراد ان يناقشهم فالويل كل الويل له .

الفصل الثاني

الثعالبي في تقدير اعلام العصر

كان الأستاذ الثعالبي موضع التقدير من كل من التقى بهم من اعلام العصر ورجال الفكر وفي مصر كان حول الثعالبي مجموعة ضخمة من المفكرين والقادة ، عرفهم وعرفوه واجتمعوا في حفلات متوالية عندما ازمع السفر من مصر عائداً الى تونس ، بلغت عشر مآدب أقامها امين سعيد واحمد شفيق باشا وال مشكي والرابطة العربية وجمعية الشبان المسلمين والدكتور مختار عبد اللطيف والشيخ علي سرور الزنكلوني ومحمود عاشور التونسي ومنصور فهمي ومصطفى عبد الرازق ومحمد الفرنواني وابراهيم الهلباوي وحامد المليجي وعصام الدين حفني ناصف وسيد حشه وقد اشترك في هذه الحفلات : ابراهيم الهلباوي ومحمد صادق المجددي، وفوزان السابق ، وابراهيم طفيش، وزكي مبارك، ومحمد لطفي جمعة، ومحمود

بسيوني ، وحمد باشا الباسل وعبد المجيد اللبان ، ومأمون الشناوي ، وعبد القادر الكيلاني وخير الدين الزركلي واحمد فهمي العمروسي ، وهاشم مهنا ، ومرغني الأدريسي ، وابراهيم عرابي ، ومهدي رفيع مشكي ، وعبد الله عفيفي ، ومحمد رفعت بك ، ومحمد مسعود ، ومحمد الهراوي ، واحمد امين وعبد الحميد العبادي ، وعبد الوهاب عزام ، وجميل الرافعي ، واحمد غلوس ، وعبد المجيد نافع ، وحلمي طمارة ، وفتح الله سليمان ، والشيخ جاد المولى ، ومحمد الأسمر وحسان أبورجاب وطنطاوي جوهري وكثيرون .

ولم تكن هذه الاجتماعات الا دراسة واسعة لأحوال المسلمين والعرب في وطنهم ووضع الخطط لمواجهة الأخطار التي تحيط بهم وقد جاءت هذه التوجيهات في خطوات أساسية هي :

(أولاً) ضرورة تعزيز الحركة العربية وتنظيمها ويجب ان يبدأ ذلك بالتعليم فتوحد برامجه في جميع البلدان العربية وتعقد له مؤتمرات دورية منظمة .

(ثانياً) اعتبار بلاد العرب وحدة كاملة تمتد حدودها من الخليج العربي حتى الاطلانطيكي واعتبار العربي مواطناً في أي

بقعة أقام فيها من البقاع العربية .

(ثالثاً) انشاء روابط علمية واقتصادية ، وسياسية وثيقة بين هذه الأقطار علاوة على الصلات العنصرية والدين وتبادل الزيارات لتأمين هذه الروابط وتعزيزها .

(رابعاً) مقاومة الاستعمار الأوروبي بجميع الوسائل والسعي لتحرير بلاد العرب وانشاء دولة عربية كبرى تنظم هذه الأقطار وتحيي مجد العرب وتذكير العرب بأنهم من أشرف الأمم ومن أكثرها عدداً وانهم يسيطرون على طرق المواصلات الكبرى في العالم ويملكون اعظم البقاع .

(خامساً) الاستهانة بقوى الغرب المادية والاعتقاد بأن المدنية الأوروبية تسير الى الزوال والانقراض وان واجب العرب ان يتعاونوا على انشاء مدنية جديدة وثقافة جديدة تحل محل المدنية الغربية والثقافة الغربية وتضمن للناس السعادة والهناء والاستقرار وتدرأ عن البشر شرور الانقسامات والمفاسد .

(سادساً) العمل على تعزيز الروابط والصلات مع الشعوب الاسلامية الأخرى .

ومن خلال هذه الاجتماعات نرى صورة الثعالبي في تقدير اعلام عصره :

(١)

تحدث الاستاذ محمد لطفي جمعة عن الاستاذ الثعالبي في أوائل هذا القرن وحوالي شتاء عام ١٩٠٢ على التقريب: رأيت للمرة الأولى شاباً طويل القامة بادناً اسمر اللون جميل الوجه جذاب الحديث يلبس قفطاناً من الحرير الأسمر المعروف بالسكروته ومعطفاً اسود اللون ويحمل وراء اذنه قلماً من الرصاص وفي يده ربطة من الصحف والأوراق وهو يتكلم بصوت عذب ولهجة تونسية لطيفة ويسبح في عالم الشعر والجمال فقدمه إلي الاستاذ احمد حافظ عوض الذي كان اذ ذاك يعمل في جريدة المؤيد الى جانب علي يوسف ومحمد مسعود .

وكنا نمر ببنك الكريدي ليونيه والوقت بعد الغروب بقليل وقال كانما يتمم حديثاً :

وهذا أيضا خيال مشيراً بيده الى بناء المصرف الضخم ونوافذه الحديدية المضاءة قال ذلك مبتسماً بما يقرب من الظفر كما يفعل الرجل الذي يظن أنه غلب محدثه بدليل قاطع وانتظر جواب السيد وانتظرت ولم تكن لحظة حتى اجاب السيد نعم هذا خيال قال حافظ بك خيال بكل ما فيه من الجنيهات الانكليزية

المرسوم على أحد وجهيها صورة الملكة وعلى الوجه الآخر القديس جورج يطعن التنين برمحه ، قال الثعالبي : وهذا الذي تذكر ادعى ان يكون المصرف بما فيه من مظاهر المادة والقوة ادخل في باب الخيال واكثر توغلاً. ثم أفاض في كلام بليغ طويل ، الحجة فيه تعلو الحجة ، والبرهان يأخذ بعنق البرهان .

كان ذلك في فجر القرن ولم يسعدني الزمان بلقاء الرجل بعد ذلك ولكني كنت أقرأ بعض أخباره في الصحف الفرنسية والعربية واتتبع حوادثه في وطنه في الشرق الأوسط بشوق شديد . كنت اعتقد أنه نوع من المعارف المتحركة ونوع من الحركة الشبيهة بالدائمة، فقد قرأت عنه في تونس وطنه وعن جمعه كلمة الخواص من اهل بلده وتأسيس حزب وانشاء جريدة ، كانت كلها الأحجار الأولى في بناء الحركة الوطنية وقرأت عن أسفاره الى تركيا القديمة والى الجزائر ومراكش ومصر وسوريا والعراق والهند وسنغافورة وجزر المضيق وجاوه .

وقرأت أخباره في مارس ١٩٢٠ اذ كان يناضل في سبيل تحرير بلاده وكيف لفقوا له تهمة باطلة بمعونة بعض الجواسيس والخونة من الشرقيين فمثّل الخائن دور الحاجة والفاقة والتبعية ليلتصق بالسيد حتى يأخذ رؤساؤه وسادته من ذلك دليلاً على

اتهام الاستاذ والقاء القبض عليه بتهمة المؤامرة وقد تم لهم ذلك واعتقلوه ولقي في سجون باريس ومرسيليا ما لقي من العنف والظلم والاساءة ولم تنفعه وساطة بعض الأحرار من الساسة الفرنسيين امثال ادوار هريو ومورودي جيافري وغيرهما وبقي في سجن تونس عهداً طويلاً الى ان جاء الله بالفرج فخرج من وطنه منفياً ومغضوباً عليه من المستعمرين ومرضياً عنه من الله .

وهو من أشرف البيوت واعظمها وله الكلمة العليا والصوت المسموع والأثر المحمود من أقصى تونس الى اقصاها بل شمال افريقيا كلها .

وفي عام ١٩٢٥ و ١٩٢٦ جاء الى مصر للمرة الثالثة فأقام بضعة أشهر وكان في أثنائها موضع الاحترام والاجلال والتقدير الى أن دعى للتدريس في جامعة آل البيت ببغداد فكان في العراق أستاذاً وزعيماً ، ولقد دفعه الشوق على الوقوف على احوال الشرق الاسلامي الى المسير فشد رحاله الى فارس والهند ولم يبق أمير أو وزير أو رجل كبير الا وعرفه وأحبه والسيد الثعالبي الان في الحلقة الخامسة من عمره وهو ذو رأس ضخم ووجه وسيم حسن التقسيم ولم تذهب الكهولة الناضجة شيئاً من بهاء طلعته وقد ازدادت عيناه بريقاً ولمعاناً وحدَّةً. وقد قارنت بين

صورته اليوم وصورته بالأمس فاذا هو كالنهر عند مصبه لا يتغير عن نفسه وهو في منبعه بل ازداد وضوحاً في الذهن وجلاء في البصيرة وقدرة على ادراك الأمور على حقيقتها وهو يدهشك بسرعة خاطره وحضور بديهتـه وسعة علمه وقوة ذاكرته ويجذبك بخفة روحه ولطف حديثه ويبدهك باعتداله وسلامة منطقه . اذا سمعت حديثه رأيته مزيجاً معتدلاً عصرياً من ابن خلدون وابن بطوطة وجمال الدين الأفغاني فهو يمت الى ابن خلدون برابطة الوطن والدين واللغة والنفس ولقد كان ابن خلدون مفكراً اجتماعياً وهو واضع أساس العلم الاجتماعي في مقدمته وكذلك الثعالبي بما بين في مبدئه السياسي وهو مقاومة الاستعمار وتحرير البلاد الشرقية من النير الأجنبي . تراه ينظر الى تكوين الأمم نظرة عامة ويبدأ مباحثه من الأصول ولا تخدعه الظواهر أو الشؤون الحاضرة بقدر ما يكترث لماضي الشعوب التي زارها ودرس احوالها ، واخلاصه للحضارة العربية وللتقاليد الاسلامية السامية أمر لا شبهة فيه ولو ان الثعالبي انقطع للتأليف فلا ندري أي كتاب يخرج للعالم وان جاءت مقدمته أقل من مقدمة ابن خلدون لأنها لاحقة لها .

منذ نضارة الشباب قد ركب تجارب الزمان وأخذ يجوب الأقطـار مفضلاً العلم والاطلاع فاستفاد بالأسفار ما لا يستفيـده

قارىء الاشعار ، وقف على اكبر نصيب من شؤون الأمم المعاصرة وعرف نفسه الى الزعماء فكان للمشاهدة أثرها الروحي والمادي . ولعل الوسائل التي يدعو اليها الثعالبي في اصلاح الجماعة أقرب الى التنفيذ والفائدة بالنظر الى التوفيق بين عهده الحاضر وعهد الأفغاني الثابر لقد كان الأفغاني محاطاً بأرقى الطبقات وكان لفيف من العلماء والزعماء والأدباء يتلهفون على مجلسه ويتلقفون من فمه لآلىء الحكمة وكان الشرق العربي بكراً ولم تفعل به يد الاستعمار الحديدية المستورة بقفاز من المخمل ما فعلته في مدى هذه السنين (١٨٧٠ - ١٩٣٠) فلم تكن الأخلاق قد انحطت في الشرق الاسلامي ذلك الانحطاط البليغ الذي هو ثمرة الاستعمار ونتيجة محكمة للحكم الأجنبي ولم تكن الشعائر الدينية قد اندثرت معالمها كما هي الحال الآن ولا ريب ان الزعيم يستمد قوته من جمهور سامعيه وتابعيه ومريديه ومثله في ذلك كمثل الخطيب والمطرب وكلاهما لا يبلغان أوج فنهما الا اذا وجدا من التشجيع والتلبية وحسن التقدير ما يجلو من صدأ مواهبهما العلوية ، وماذا تكون قيمة الأفغاني بغير جماعة الفحول الذين تتلمذوا واستفادوا بعلمه ونشروا آراؤه وعملوا على تنفيذها ومن كان ينقل الينا اخباره وآراءه ان لم نجد محمد عبده واللقاني واضرابهما .

ويجمع بين الأفغاني والثعالبي حب الخير للشرق والحضارة العربية وذلك القلق المقدس الذي يدفع بصاحبه الى الارتحال في سبيل المثل الأعلى فيرى أحدهما لا يستقر على حال في بلد من بلدان الشرق أو الغرب فان لم تخرجه الحوادث فانه لا شك خارج وهو يردد كلمة الأفغاني الشهيرة : « ان الأسد يجد قوته في كل مكان » وللسيد الثعالبي حديث حلو ومنهج نافع واذا القيت عليه سؤالاً فهو مجيبك بما يشفي غليلك ولا يجعل لك حاجة في الاستزادة.

يرى أن وسائل التعليم الابتدائي هي التي أدت الى انحطاط المستوى العقلي فيقول : ان المدارس الابتدائية بدأت في تونس في سنة واحدة بتأسيس مدارس للمسلمين وأخرى لليهود فكانت دروس التلاميذ المسلمين تدور حول تعليم التلاميذ بما يملأ نفوسهم غروراً وكبرياء ، أما أبناء اليهود فكانوا يتعلمون كيف يكتبون مكتوباً تجارياً أو يراسلون عميلاً أو يستقدمون شريكاً للحساب ثم هم يلقنون ما ينفعهم في تقدير قيمة الوقت والمال والعمل » .

(٢)

وتحدث محمود زكي باشا عن الأستاذ الثعالبي يقول :

صديقي الأستاذ عبد العزيز الثعالبي الذي جمعني به محاسن الاتفاق في حاضرة تونس في ١٣١٤ هـ ١٨٩٦ م الان عام ١٣٤٩ هـ أي قبل خمس وثلاثين سنة وكان كلانا في ريعان الصبا ثم بعد ذلك في الاستانة والايام أيام ، والاستاذ الثعالبي أمة جامعة فلقد كنت من أشد الناس اعجاباً بذكائه الباهر وفصاحة لسانه وسعة اطلاعه وغزارة علمه وفرط حميته الاسلامية فللسيد الثعالبي حديث حلو ومنهج نافع ، فياض كالنبع الذي لا ينضب كل ذلك في تواضع وأدب وحياء وبعد عن الادعاء والكبر كان في ذلك التاريخ ١٨٩٦ شاباً مهيب المنظر محبوب الطلعة خفيف الروح حلو الفكاهة والحديث قوي الحافظة غزير المادة حاضر البديهة ومع ما كان يقتضيه سن من كان في سنه ، كنا نراه ينزع الى الوقار والاحتشام وكان لا ينفك عن التكلم باللغة العربية الفصحى اذا قال استرعى الاسماع والافهام وسحر الألباب بنفثات بيانه الخالب وما يتناثر من لسانه من لؤلؤ رطب .

وقد ذهب في أسلوبه مذهب الشيخ البكري ، وكان يرمي في جريدته الى تكوين نهضة متحلية بالتربية النفسية واداب الاجتماع والتنافس في مضمار العلوم والفنون الصناعية وكان من عادات المشتغلين بالعلوم في الديار التونسية ولا سيما تونس

الخضراء كثرة المناظرة ومعرفة المسائل التي يجتهد كل فريق في استنباطها ووضعها في قوالب رشيقة ثم يناجي بها أترابه يوجهها لهم على سبيل الاستفهام ولقد كان الثعالبي هو المقصود بالذات بتلك الاسئلة التي تتوالى ولا تنقطع ولا ينضب معينها وربما كان يراد بها احراجه واغضابه ولكن كم من مرة وجدته سبق السائل بالجواب بكل لطف ووداعة .

ولتونس حضارة شرقية ممتازة تلقتها من الأندلس حين كانت شمس مدينة الأندلسيين تشرق على العالم ولم تزل أشد صفاء وأبهر سطوعاً في تونس كما أنها جديرة بان تلقّب تونس بالخضراء لمناظرها الشائقة ومحاسنها الرائعة .

كنت لا اجلس في مكان مع أية نخبة من الشبيبة التونسية الا وينقلب الحديث فجأة الى البحث عن مجد الاسلام وعظمة الشرق وحقوق المسلمين والمسألة الشرقية والخلافة .

وكان يرى وكانت الحرب بين الدولة العلية واليونان انه لو اتحد المسلمون كافة في الجهاد لاثار في وجوه المعتدين على مقام الخلافة غبرة وقتاما واذا لم يغتنم المسلمون هذه الفرصة وبقيت الممالك الاسلامية مفككة العرى وربما أفضت فكرة المؤامرة على الرجل المريض بانقراض الخلافة وفقدها من ال

عثمان : تنبأ وصدقت نبوءته ، كنا نتغامز فيما بيننا على هذه الجمل الفصحى التي لو صدرت من ملك متوج لاستعظمها الناس ولكن ها هي الأيام ارتنا ما كنا لا نصدقه.

(٣)

ويتحدث (ص) في مجلة الرابطة العربية عن الاستاذ الثعالبي : تحت عنوان الثعالبي كما عرفته فيقول :

اتحدث عن الحياة الشعبية في تونس منذ نصف قرن، أشير بصفة خاصة الى التأثير العظيم الجامع لجامع الزيتونة في الحياة الاجتماعية والسياسية في شمالي افريقية ولعل في تشبيهه بجامع الازهر ما يغني عن الافاضة ، من اربعين سنة تخرج من جامعة الزيتونة شاب يافع لم تزد سنه على ستة عشر عاما ولم يكن له هم بعد ان قضى سني الطلب إلا ان يهب من شبابه ووقته وثروة اسرته الموفورة اكبر قسط لوطنه .

لم تكن السلطات الحاكمة في تونس لتسمح باذاعة آراء هؤلاء الشبان المتهورين او نشرها حرصا على امن الشعب ورفاهيته . فلم يجد دعاة الوطن بدا من العمل في الخفاء ، فتأسس اول حزب سياسي معارض في تونس ١٨٩٧ وكانت اعماله سرية ولم يطل عمره ففي ١٩٠٦ تأسيس حزب سري اخر

اسمه حزب الاحرار ، عاش فترة قصيرة ، من ١٩٠٨ تألف الحزب التونسي ونشط في اداء رسالة الوطنية الى ١٩١١ وجاءت الحرب وكانت سببا في خفوت صوته . وكان عبد العزيز الثعالبي صلة الوصل بين هذه الحلقات والقطب الذي تدور حوله ، فقد اعتقل للمرة الاولى سنة ١٩٠٥ لمدة شهرين ثم اطلق سراحه ليراقب ويضيق عليه ثم لينفى من البلاد سنة ١٩١٢ وقد استطاع بما جبل عليه من سخاء وذكاء ونشاط ان يلفت اليه الانظار في انحاء البلاد فما ان وضعت الحرب اوزارها وانعقد المؤتمر الوطني في تونس ممثلا لجميع البلاد حتى تقرر ايفاده الى باريس سفيرا شعبيا يدافع عن حقوق تونس ويدعو الى تحريرها .

(وكان في باريس سعد عن مصر وفيصل عن سوريا والثعالبي عن تونس) .

وقد توثقت صلته بزعماء فرنسا الاحرار وكبار كتابها ومفكريها فجعل منهم دعاة لتونس وحمل مؤتمراتهم الحزبية الكبيرة على اصدار قرارات حاسمة في شأن بلاده فقبضت عليه السلطات الفرنسية في ٣٠ يونيو ١٩٢٠ متهمة اياه بالاتصال بالدول المعادية لفرنسا . واتخذت هذه المهمة ذريعة لاعادته الى تونس وتقديمه للمحكمة العسكرية هناك وفي تونس وجهت

اليه التهم الآتية :

● السعي لاثارة العناصر القاطنة في البلاد بعضها على البعض الآخر .

● التآمر على امن الدولة .

● الطعن في نظام الحكومة واصدار كتاب تونس الشهيدة بالفرنسية. واستمر التحقيق سنة كاملة ثم فتحت ابواب السجن لاخراجه دون ان يقدم للمحاكمة فرفض الخروج مدة ثلاثة ايام مما سبب للسلطات قلقا كبيرا زاد الحادث لهب الحركة الوطنية ورأى الثعالي ان يقوم برحلة في الامم الشرقية داعيا لبلاده فحبست السلطة منه الاذن له ورفضت فتوسط له المسيو بوانكاريه فنال ما اراده ولكن ما كاد يغادر البلاد حتى صدرت الاوامر لجميع القنصليات الفرنسية في انحاء العالم بان تمتنع من التصريح له بدخول بلدان فرنسا ومستعمراتها . من ذلك التاريخ ظل بعيداً عن تونس محرّماً عليه دخولها ومشاهدة زوجته وابنه واهله فيها، ومضى عليه ثلاث عشرة سنة في هذا المنفى الاختياري ظلت الامة التونسية ثلث قرن متفقة على زعامة الثعالبي ورفعه الى الذروة وثبت هذه الزعامة ليس على حبه لوطنه فقط، بل انه اوسع اهل بلاده ثقافة وعلما لم يقتصر في بناء

حياته العقلية على مطالعاته المتصلة في الكتب والورق بل على مطالعاته في الحياة فهو منذ عهد الشباب ١٨٩٧ دائب على التجوال في تلك السنة خرج من بلاده فزار جميع بلدان البحر المتوسط وشطوطها متفرجا على معالمها وناسها وله في فرنسا وايطاليا وتركيا وسوريا ومصر اصدقاء، وقد استغل فرصة نفيه ١٩١٢ فرحل رحلة طويلة في فرنسا وسويسرا فالمانيا والنمسا فالمجر فالصرب وبلغاريا فتركيا ومصر ومن مصر سافر الى جنوب الجزيرة فسيلان فاقليم مدراس في الهند فبلاد البنغال ثم الملايو وسنغافورة وسيام وجاوة والفيليبين وشنغهاي في الصين .

وخرج من تونس المرة الاخيرة عام ١٩٢٣ فقضى فترة متنقلا بين مصر وفلسطين وشرق الاردن والحجاز واليمن ثم سافر الى الهند فبلدان الخليج الفارسي فبلوخستان فالعراق واقام في العراق من ١٩٢٤ الى ١٩٢٦ وعاد الى مصر ليحضر مؤتمر الخلافة في شهر مايو ١٩٢٦ ثم عاد الى الحجاز ثم ذهب الى اليمن ثم الى الهند وعاد من الهند الى العراق ١٩٢٩ ثم ذهب الى ايران وعاد الى بغداد واوائل ١٩٣٠ غادرها الى فلسطين فمصر .

وفي خلال هذه الرحلات استطاع ان يدرس حالة الشعوب

الاسلامية دراسة عالم محقق ، وهو من دعاة السياسة الاسلامية العامة غير انه دعا بعد الى ايجاد سياسة عربية متحدة يمكن ان تكون نقطة ابتداء تتحول الى خلافة شرقية .

وفي عام ١٩٣٣ عزم على ان يرحل رحلة جديدة ، فسافر متنقلا بين بلدان البحر الاحمر الى الهند فبرما فسنغافورة فمانلا (الفيليبين) فهنج كونج فالصين .

وهناك في الصين ابلغته حكومة فرنسا انها رفعت الحظر على دخوله الى البلاد التونسية .

الثاني ان انشقاقاً قد حصل بين الوطنيين في تونس وبلغت الرسائل التي وصلته من المتنازعين ١٥٠ رسالة فاضطر ان يقطع رحلته بعدما وطن عزمه على اختراق الصين غربا الى تركستان ومنها الى افغانستان وعاد الى مصر ركضا وجمع امتعته وأعد عدته وحجز مكانه على الباخرة ، وفي دقيقة الابحار ابلغ ان المقيم العام في تونس مانع في ذهابه الى تونس ومن ذلك الوقت ١٩٣٣ وهو يقيم بين مصر وفلسطين .

(٤)

وقال مهدي رفيع مشكي الزعيم الايراني :

في سنة ۱۸۸۱ على ما اظن وقف الثعالبي الطفل يشهد دخول المستعمرين الى بلاده وقد رأى لأول مرة جده يسكب العبرات والناس يرمقون هؤلاء الجنود بعيون باكية وقد خلعت تونس حلتها الخضراء وظهرت في حلة قاتمة سوداء فانتفض وفي النفس حسرات وفي العين عبرات واقسم الثعالبي الطفل ان ينتقم لبلاده . طلب الى فرنسا ان ترفع عن بلاده حمايتها فكانت الحرب العظمى وما ان خمدت الحرب حتى سافر الى باريس يناشد اولياء الامور فرفضوا كل تفاهم وقالوا لا يمكن ان يكون الا في تونس ، اتهموه وهو في فرنسا بانه على علائق مع اعداء فرنسا ونشرت صحف فرنسا تحت عنوانات ضخمة (علائق سرية مع اعداء فرنسا) ثم حملات للاستيلاء على اوراق الثعالبي ، ولما اعيتهم الحيل ارسلوا الثعالبي تحت التحفظ الى تونس ، والقي عليه القبض فالقي في السجن من اغسطس ۱۹۲۰ الى مايو ۱۹۲۱ واثر الكفاح في صحته فسافر الى ايطاليا مستشفيا ۱۹۲۳ فاوعزت فرنسا الى معتمديها في مختلف الاقطار ان لا يؤشروا اذنا بالسفر الى اي منطقة لها عليها حماية أو انتداب واستعمار فسافر الى تركيا وجاء الى مصر .

الفصل الثالث

العودة الى الوطن

عاد الاستاذ الثعالبي الى الوطن تونس ١٦ يوليو ١٩٣٧ وامضى بها سبع سنوات الى ان توفي في اكتوبر ١٩٤٤ (شوال ١٣٦٣) ودفن في مقبرة الزلاج وحياة الثعالبي في هذه الفترة ليست واضحة تماما فقد بدأت باحتفالات الابتهاج لعودته وزيارته لعديد من أنحاء تونس ودعوته التي أعلنها للوحدة بين السياسيين ويبدو ان الاستاذ الثعالبي قد احس بان دعوته الى التوحيد بين الاحزاب لم تصل الى الغاية التي كان يرجوها ولذلك فقد اعتزل الحياة السياسية وامضى ايامه في كتابة مذكراته ولا ندري شيئاً عن مصير هذه المذكرات .

كانت مصر تحتضن الثعالبي قبل سفره . وكانت اخباره بها واضحة مبسوطة فهو في آخر ايامه يتحدث عن « الابوة » : يقول :

انا أبو التونسيين جميعا وساستأنف مع الجميع العمل الذي تركته منذ خمسة عشر عاماً ويقول انه منذ ترك تونس ١٩٢٣ وزعماء تونس يتصلون به ويطلعونه على مراحل العمل السياسي وتطوراته ، وقال انه سيدعو الى عودة الفريقين المتنازعين الى الوحدة وسيطالب بدستور للبلاد التونسية يقر سلطة الامة .

ويقول محمد صبيح في مناجاة له بعد سفره :

كنت تجلس في الفندق وتسرح بصرك في صفحة البحر الى حيث تلتقي مع الافق ثم تقول : ترى كيف سالقى حميدا ابني . لقد غادرته طفلا صغيراً وصورته الآن في ذهني كما كانت منذ خمسة عشر عاماً وتأبى ان تطوي هذه الفترة الطويلة لتمثله لي شاباً يافعاً امتدت قامته ونمت اطرافه .

لا انسى يوما تلقيت فيه خطاباً من حميد ما تلوته حتى ظللت طول ذلك اليوم محزونا دامع النفس ، لقد كتب الي بالفرنسية لانها اللغة التي تعلمها ، فانكرت عليه اهماله لغة البلاد ولغة ابائه وطلبت منه ان يكف عن مراسلتي ان لم يكتب لي بالعربية فرد يقول : ماذا اصنع وانا لا اعرف العربية وقد اهملتني ـ وانا ابنك ـ فشببت لا اجيد لغتك وها انت تطوف الممالك تهذبها وتعلمها وتتبنى الامم والشعوب وتتركني انا فأحاول ان ارفه عنك

ولكنك لا تلبث حتى تخفي ـ بما جبلت عليه من قوة ارادة ـ ما يحزنك ويكدرك .

يقول الثعالبي فيما يرويه محمد صبيح : لم اسىء الى مخلوق قط ، الا زوجتي فقد اقترنت بها منذ ثلاثة وعشرين عاما ولم امكث معها غير سنوات خمس ، اما ما تبقى فقد قضيته في المنفى والسجن وحتى هذه السنوات الخمس لم اكن خالصا ، فان الحركة الوطنية التي اشتغل بها في تونس كانت شغلي الشاغل ، كنت انزل من البيت في الصباح الباكر قبل ان يستيقظ احد وامضي الى عملي في مقر الحزب الحر التونسي واظل منهمكا فيه الى ما بعد منتصف الليل وكانت زوجتي احيانا تنتظرني ساهرة مستيقظة حتى اذا رأتني اخذت تعاتبني على ما اضيع من حقها ، وتمضي في خلاف وخصام ولقد حملت الي كل من لقيت الغبطة والسعادة الا زوجتي . فقد احتملت معي اقسى ما تحتمله امرأة في الوجود ، لقد غادرتها رجلا في مطلع قوته وها انا اعود اليها وقد اشتعل رأسي شيباً ومع هذا فلن اكون لها وحدها ولكني سأكون كعهدي القديم لبلادي وعقيدتي . » .

وصل الثعالبي الى مرسيليا في ٥ يوليو ١٩٣٧ على الباخرة محمد علي . ونزل في فندق اللوفر ورفض طائرة قدمها له

المقيم العام في تونس للسفر الى تونس وقال انهم ينتظرونه عن طريق البحر ثم ابحر الثعالبي على الباخرة «الحاكم العام جونار» فوصل يوم ٦ يوليو ١٩٣٧ الى شواطىء تونس .

ونشرت صحف تونس فيضاً من اخبار استقباله ، فقالت :

طلعت غزالة يوم ٨ يوليو ١٩٣٧ على البلاد التونسية وهي في سرور لا يوصف فأقيمت الزينات في كل حي زينة وفي كل جهة مهرجان لأنه عام عودة زعيم تونس الأكبر الاستاذ السيد عبد العزيز الثعالبي بعد غياب أربعة عشر عاماً عن وطنه. وفي يوم القدوم كان المار بالعاصمة يراها كأنها في عيد نادر المثال حيث ظهرت جميع حاراتها الوطنية في اثواب الزينة الفخمة وعلقت الرايات الوطنية على جميع المحلات. وما ازفت ساعة قدوم الباخرة حتى كانت الميناء تموج بما يزيدعلى سبعين الف نفس ولما ألقت الباخرة مراسيها بانت طلعة الزعيم الثعالبي فعلا هتاف ذلك الخلق العظيم لحياته وحياة الوطن .

أول خطاب للثعالبي في اول حفل ضم خمسين الفا :

ابناء الاغالبة : ابناء الغرّ الميامين :

اذكروا أنكم الذين رفعتم شأن الاسلام قروناً طويلة ونشرتم

الحضارة باوروبا وان انكر ذلك مؤ رخوها وقساوستها وانتم الذين حررتم الأمم والشعوب من الرق ومن الاضطهاد ومن الاستعباد .

انبهكم الى اليقظة . الى العمل . الى موطن الكرامة الذي حيل بينكم وبينه بأيدي المغتصبين ، الذين ارادوا أن يقبروا هذه الملايين من ورثة مجد العرب والاسلام ليجعلوها حلفاً جديداً لا يمت الى الاسلاف بسبب .

وعلى هذا الاساس يعلمونكم تعليماً ناقصاً ليقضوا على كل امل في حاضركم ومستقبلكم . ما يجب عليكم هو ان ترفعوا شعار الاسلام والعروبة ، يومئذ يتغير التاريخ ،العرب ينادونكم والاسلام يدعوكم .

رفع رأس القومية التونسية ، ووحدة افريقيا الشمالية ، وافريقيا لنا ونحن لها ، هي وطننا فقدروا يرحمكم الله المسؤولية والتبعة التي علينا لانفسنا ولوطننا ولأجدادنا ولتاريخنا . نحن العرب لسنا بأقل مواهب من غيرنا فمن العار علينا ان نضيع هذا الميراث الجليل. كنا وكانت الدنيا لنا، كان القول قولنا والأمر أمرنا ، وكانت الأمم التي تدعي الزعامة علينا ترجو قربنا وتخطب ودنا ولكنا استهنا بكرامتنا وهانت علينا انفسنا .

كما يجب انقاذ الميراث العظيم في سبيل تحرير البلاد .

لست ثائراً ولكني طالب حق وانصاف . اريد ان انصف نفسي وأثأر لكرامتي وهذا ما ادعو اليه الشعب التونسي . الذي ينقصنا ليس هو العلم والمادة بل هي الارادة . سلبت ثروتنا وملكنا وعزنا وثروتنا ولم يبق لنا الا آخر معقل وهو الايمان .

أما انا الذي غاب عن البلاد اربعة عشر عاماً فقد بعد تأثيري على هذا الشعب والعمل الحقيقي هو الذي قام به هؤلاء الشبان .

وقال الثعالبي : اذا اردنا ان نكون كما يجب فلنقف وقفة الجندي الباسل لانقاذ الميراث العظيم في سبيل تحرير البلاد فانتبهوا الى ما يجب عليكم لانفسكم وبلادكم قدوة الى الحياة ترفعون شعار الاسلام والعروبة يومئذ يتغير التاريخ وتصيرون احراراً جديرين بالانتساب لهؤلاء الاسلاف الذين دونوا اجمل المفاخر في تاريخ هذا العالم .

ومنذ وصل الثعالبي اخذ يطوف العواصم التونسية ويستقبل فيها استقبالات ضخمة وهو لا يفي يدعو دعوته الى الوفاق والائتلاف بين الأحزاب غير ان الاستعمار الفرنسي كان حريصاً على انه لا تنجح هذه الدعوة وبدت في الأفق خلافات واشاعات ووصف الثعالبي بانه رجل غائب لم يشهد تطور الاحداث وان

كانت زعامته قائمة على تونس فانما هي زعامة روحية خالصة ، ولذلك فان الثعالبي الذي كان يعرف هذه التيارات جميعاً سرعان ما انسحب من معترك السياسة الحزبية واكتفى بمكانته الأدبية ودوره الضخم الذي قام به خلال اربعين عاماً .

وقد أشارت الى هذه المعاني صحف تونس المختلفة الاتجاهات :

قالت احدى الصحف : ان مرارة الابعاد الذي دام أربعة عشر سنة لا بد قد اعمت عن مهمة الشيخ عبد العزيز الثعالبي عندما حل يوم الخميس بميناء العاصمة وسط ثلاثين الفاً من الوطنيين . ان هؤلاء التونسيين الذين احرقهم وهج الشمس وخنقهم الزحام ينتمون الى أفكار سياسية متباينة عن بعضها ولكنهم كانوا مسرورين بتحية رجل له اياد بيضاء على تونس .

وتقول صحيفة اخرى : في الوقت الذي يتمخض فيه الشمال الافريقي عن حركات سياسية واجتماعية كبرى وفي الوقت الذي التوت فيه امامه الطرق والاساليب ازاء الاوضاع السياسية الحاضرة ، وفي الوقت الذي كان ينتظر فيه وهو على احر من الجمر رجلاً يعرف كيف ينقذه من الاخطار المحدقة وينقذه من بين اسلاك السياسة الشائكة ويقوده بحكمة وتبصرة

ومهارة الى الاهداف التي ترمي اليها العروبة والاسلام والعزة القومية . في هذا الوقت نفسه وصل من الشرق لشمالي افريقيا الزعيم الكبير عبد العزيز الثعالبي بعد أربعة عشر سنة قضاها في عواصم الاسلام ينتقل كالبدر في بروجه .

وقالت جريدة النهضة : ان الواجب الذي ينتظر الاستاذ الثعالبي هو سعيه لازالة الشحناء والتنافس والنفرة بين رجال الحركة السياسية وتوحيد صفوفهم وجمع كلمتهم على منهج واحد وخطة واحدة ولنا آمال كبار نعلقها على الخبرة التي اكتسبها من دراسته لاحوال الشعوب الشرقية والغربية تجعلنا على ثقة بانه سيضطلع باعباء هذه المهمة .

وقالت الصحف (نقل عنها البلاغ في مصر في ١٧ اكتوبر ١٩٣٧) .

ان الاستاذ الثعالبي من اجل توحيد كلمة التونسيين : اضطر لان يقوم بطواف عام في نواحي تونس يدعو فيه التونسيين الى الائتلاف وبدلاً من ان تقابل هذه الحركة بالقبول والشكر نهض فريق من المتشبثين لمقاومتها واثارة الدعوة ضدها والتحريض على وقف حركة الاستاذ الثعالبي بالقوة .

وقد وقع نتيجة هذا حادث مكدر في مدينة سوسة . وان

الشعب التونسي بأسره لا فريق من سكان العاصمة والساحل ، يعترف للشيخ الثعالبي بما له من اليد الطولى في غرس الشُعور القومي في النفوس وفي تلقين الشعب مبدأ عزة النفس ويقر له بالفضل ويعطف عليه اجل عطف لاحتماله الاغتراب عن وطنه بصبر وثبات تلك الحقبة الطويلة من الزمن .

وقد كتب الثعالبي وخطب حول هذا فكان مما قاله :

راجت اشاعات تقول بأني بعت مصر وجئت لأبيع تونس واعاكس سير الحركة الوطنية فيها واقضي على مصالح العمال. كنت اضحك من هذه المهازل ولا اعيرها اقل التفاتة لوثوقي بالشعب التونسي ويقينه بما لي من الايادي البيضاء على قضيته وما اسلفت في جانبه من التضحيات المتكررة الكبيرة بذاتي ومالي وولدي .

وكنت اعتقد ان حياتي اللامعة في الشرق مدة بعدي عن تونس التي كانت دفاعاً متواصلاً عن حقوق الشعب التونسي في مصر وفلسطين والعراق وبرما والهند وغيرها .

لقد صارحت الأمة باني ما جئت لهذه البلاد الا لأدافع عن استقلالها وهو عهد صريح مني للشعب كما عاهدته ايضاً على ان امد يدي لكل عامل مخلص لبلاده بلا استثناء . ويقتضي هذا

العهد ان لا اكون لأحد دون الآخر بل اكون ككل تونسي يحدب على بلاده ، وقد رأيت ان اصدق مهمة اقوم بها لتحقيق هذا العهد السعي إلى لمّ شعث الأمة وتوحيد كلمتها واستلال السخائم من الصدور والاحقاد من النفوس وهذا ما يأباه علي الحانقون . ان عزمي على دعوة الشعب مباشرة الى الاتحاد النزيه هو الذي اثار الشر الكامن في نفوس الكارهين له وقد دفعوا اولئك الذين استفزوهم الى ارتكاب جرائم القتل .

ويقول الثعالبي : حرام ان تخدعوا لهاته الأيادي الضالة التي تدفعكم لافساد هذه الاجتماعات التي نبغي من ورائها توحيد صفوف الأمة .

ويقول كنت اود ان أفتح هذا البيان بكلمة حاسمة عن عصابة الديوان السياسي التي حرضت على قتلي ببلد ماطر ولكن لما وقع منها رأيت من الكرامة ان امسك عنها .

وكان مما يحمل به عليه خصومه قوله أنه من طراز قديم لا يصلح للعمل والحقيقة ان الثعالبي كان من طراز ذلك الجيل الذي يؤمن بمفهوم الاسلام في العمل الوطني والذي لا يستطيع الاستعمار ان يجد معه سبيلاً الى تنازل قيد أنملة عن حقه الذي يؤمن به وقد انتهى هذا كله بأن اعتزل الاستاذ الثعالبي

الحياة السياسية بعد ان فقد الأمل في قيام الوحدة واعتكف في داره منصرفاً الى تدوين مذكراته وانجاز مؤلفاته غير ان عزلته لم تدم طويلاً فقد حمله ابناء قومه على العودة الى ميدان الجهاد السياسي فلبى النداء ثم جاءت الحرب العالمية بقيودها واحكامها العسكرية وساءت صحته أخيراً فعاد الى عزلته .

أما هذه السنوات السبع التي عاشها حتى توفي فقد قضاها الثعالبي معتكفاً يترقب انتهاء الحرب العالمية الكبرى التي كبلت الحركة الوطنية التونسية وشددت القبضة على المجاهدين ولكنه لم يلبث أن توفي في اوائل اكتوبر ١٩٤٤ .

وقد نعت الصحف المصرية الأستاذ الثعالبي : فنشرت الأهرام في ٣ /١٠ / ١٩٤٤ رثاءً جاء فيه ما يلي :

نعت وكالة الأنباء الفرنسية أمس من مدينة تونس المغفور له السيد (عبد العزيز الثعالبي) الزعيم التونسي المعروف في مصر واحد اعلام الحركة العربية . وما من شك في أنه سيكون لنعي السيد الثعالبي صدى اليم في دوائر السياسة والادب في البلاد الشرقية وخاصة العربية منها فقد كان رحمه الله في طليعة رسل القضية العربية العاملين ، فدافع عنها دفاعاً مجيداً في رحلاته العديدة الى باريس ومصر وجزيرة العرب وغيرهما من بلاد الشرق

الأدنى وجزر الهند الشرقية الهولندية . وقد ارتبط خلال هذه الرحلات بروابط الصداقة والمودة مع جلالة الملك عبد العزيز ال سعود وجلالة الامام يحيـى ورفعت النحاس باشا وغيرهم من زعماء هذه البلاد واقطابها .

ولقد كان الفقيد الكبير على جانب عظيم من الثقافة وسعة الاطلاع وكانت له آراء سديدة في الشؤون السياسية والاجتماعية والدينية والفلسفية ومما يذكر عنه أنه قام بحركة سياسية اضطر على أثرها الى مغادرة تونس والوفود الى مصر وأمضى بعد ذلك معظم سني حياته في جهاد متواصل ثم توفر في السنين الأخيرة على البحث والتـأليف رحمه الله رحمـة واسعة وأسكنـه فسيح جنانه » .

كذلك نعته جريدة المصري فقالت بعد ان أشارت الى برقية وكالة الأنباء الفرنسية : ولقد كان الفقيد شخصية بارزة ممتازة ليس فقط في مسقط رأسه تونس بل في سائر الأقطار العربية والبلدان الاسلامية وطالما جاهد في سبيل الوطن الاسلامي أولا ثم في سبيل الوحدة العربية التي كانت اعز امانيه وأسمى الأهداف التي سعى اليها وكان الثعالبي مؤسساً للحزب الدستوري التونسي وظل عميداً له ومشرفاً على سياسته بالرغم

من اضطراره الى الحياة في المنفى بعيداً عن وطنه . وقد عاش سنوات عديدة متنقلاً بين مصر وسوريا ولبنان وفلسطين والحجاز والعراق والهند .

وعاد الى تونس منذ سنوات حيث ظل مدة من الزمن معتزلاً السياسة معتكفاً في داره منصرفاً الى تدوين مذكراته وانجاز مؤلفاته غير أن عزلته لم تدم طويلاً فقد حمله أبناء قومه على العودة الى ميدان الجهاد السياسي فلبى النداء ثم جاءت الحرب بقيودها وأحكامها العسكرية مما أدى الى ركود الحركة الى حين .

وكانت صحة الثعالبي قد ساءت في المدة الأخيرة فعاد الى عزلته وانصرف الى معالجة نفسه حتى أدركته منيته .

وهكذا انطوت صفحة رجل عملاق ، ومجاهد كبير في مجال حركة اليقظة الاسلامية ، من ذلك النوع الذي عرفه العالم الاسلامي في أوائل اتصاله بالغرب ، أولئك الذين كانوا يؤمنون بأن الحركة الوطنية والعمل السياسي جزء من الحركة الاسلامية الداعية الى مقاومة المستعمر ليس فقط في مجال السياسة بل في كل ميادين الاجتماع والاقتصاد والتربية والثقافة . وكانت أبرز خواصه الرحلة والبحث عن حقائق العالم الاسلامي

وأهله ومجتمعه وهو في هذا يأخذ نفس الطريق الذي شقه من قبله جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده والكواكبي وعبد الرشيد ابراهيم أولئك الذين ذهبوا في الهجرة الى كل مكان احسوا انهم يستطيعون فيه ابلاغ كلمة المسلمين وكلمة امتهم وهو على نفس النهج الذي سبقه اليه الامام محمد بن علي السنوسي الذي تحرك بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر الى آفاق الأرض وذهب في جولة واسعة الى الجزيرة العربية والى مكة والى كل مكان باحثاً عن أسلوب للعمل في مواجهة هذه الظاهرة الجديدة : ظاهرة الهجوم الاستعماري الغربي على العالم الاسلامي ولقد عايش الثعالبي وعاصر مجموعة من المجاهدين في أرض الاسلام : أبرزهم الامام عبد الحميد بن باديس ، زعيم الجزائر ، واحمد الشريف السنوسي زعيم طرابلس الغرب وعبد العزيز جاويش ومحمد فريد دعاة الوطنية في مصر . ومحمد اقبال في الهند الاسلامية ، وعلال الفاسي في المغرب ، ولقد امتد الزمن بالثعالبي فعايش عصرين من عصور حركة اليقظة الاسلامية عصر ما قبل الحرب العالمية الأولى والعصر الخصب الحافل بالاعلام والباحثين فيما بين الحزبين .

وكان الثعالبي يعمل في ميادين العمل كلها : عمل الحركة الاسلامية والدعوة الى تحرير العقيدة وتجديد الفكر وفي ميدان

الجامعة الاسلامية ، وتحرير فلسطين ، وفي مجال الدعوة الى تحرير تونس والمغرب العربي ، وكان يربط هذا كله في دائرة واحدة هي دائرة اليقظة الاسلامية التي سار على طريقها من قبله كل المجاهدين والعاملين منذ بدأها الامام محمد بن عبد الوهاب في قلب الجزيرة العربية وما تتالت به من دعوات المهدي السنوسي وجمال الدين وخير الدين ثم جماعة السلفيين : محمد عبده والألوسي ورشيد رضا ، وقد ترك في هذا المجال بصمات واضحة ودوياً شديداً رحمه الله رحمة واسعة وأجزل مثوبته كفاء ما عمل لأمته الكبرى وأمته الصغرى .

الفصل الرابع

الاستاذ الثعالبي
وحفلات تكريمه

في دار الاستاذ المليجي

حفلت دار الاستاذ المليجي بشارع حلوان في منتصف الساعة التاسعة من مساء الخميس الماضي بجمهرة كبيرة من كبار الزعماء والعلماء وأهل الفضل والأدب لوليمة عشاء فاخرة اعدها لتكريم الزعيم التونسي الكبير السيد عبد العزيز الثعالبي بمناسبة سفره الى وطنه تونس .

وكان في مقدمة الذين أجابوا الدعوة حضرات أصحاب السعادة والفضيلة والعزة محمد علي علوبه باشا ومختار حجازي باشا والسيد فوزان السابق واللواء علي شوقي باشا والدكتور عبد

(*) جريدة البلاغ المصرية ٢٦ يونية ١٩٣٧ .

الرحمن شهبندر والشيخ مأمون الشناوي والشيخ سرور الزنكلوني ومحمود لطيف بك والقاضي هاشم بك مهنا ومحمد بك شرف وعبد الحميد راغب باشا والاستاذ عبد القادر حمزة والاستاذ محمد لطفي جمعه والدكتور احمد عيسى بك وميرزا مهدي رقيع مشكى بك ومحسن مشكى بك والاستاذ صالح جودت المحامي والدكتور مصطفى فهمي بك والشيخ عبد الوهاب النجار ومحمد بك الفرنواني والمير الاي عثمان فريد بك والاستاذ محمد مسعود والاستاذ عبد الحميد السخاوي والشيخ محمود مكي والدكتور عبد الحميد العبادي والاستاذ عبد القادر مختار والاستاذ بيومي الجنيد والاستاذ عزيز طلحة والاستاذ عبد القادر العبد المحامي والاستاذ عبد المنعم حسن وغيرهم من اهل الفضل والأدب ومن الجاليات المغربية العزيزة .

وجاء الزعيم الكبير السيد عبد العزيز الثعالبي فقوبل بالتصفيق والترحيب واختلف المدعوون الى موائد الطعام في الطابق العلوي وكانوا نيفاً ومائة مدعو وكان الطعام كله من مختلف انواع « الاسماك » جيء بها خصيصاً من الاسكندرية وبعد أن تناول المدعوون الحلوى عادوا الى الطابق الأول فشربوا القهوة وظلوا في سمر شهي . ومن ثم تناوب في الكلام شعراً ونثراً حضرات الاساتذة الشيخ عبد الوهاب النجار والحاج محمد

الهراوي والدكتور محجوب ثابت ومحمود رمزي نظيم والسيد محمد بنونه المغربي فاحسنوا واجادوا واثنوا على الداعي الكريم . ثم نهض السيد الثعالبي بين التصفيق والتحية فارتجل خطابا فياضاً بالحماسة والوطنية والغيرة الإسلامية فكانت تقابل كل فقرة من فقراته بالتقدير والاعجاب . ثم نادى الحاضرون الزعيم الثوري الكبير الدكتور عبد الرحمن شهبندر فقال إنه يشترك بقلبه في الاحتفال بأخيه الثعالبي فهتف لهما طويلاً .

وبقي الحاضرون الى ساعة متأخرة من الليل في صفاء ومؤانسة وصفاء لذكريات الاستاذ الثعالبي وسودانيات الدكتور محجوب ثابت وانصرفوا شاكرين .

حفلة الشبان المسلمين

احتفلت دار المركز العام لجمعيات الشبان المسلمين بجماهير غفيرة من الكبراء والعلماء والادباء لتكريم زعيم تونس الاكبر الاستاذ عبد العزيز الثعالبي . وكان في مقدمة الذين حضروا هذه الحفلة حضرات احمد خشبه باشا ، السيد محمد صادق المجددي ، والدكتور عبد الرحمن شهبندر ، علي شوقي باشا ، السيد عبد القادر الكيلاني بك ، الدكتور منصور

فهمي بك ، ميرزا مهدي بك وشقيقه محسن بك ، الاستاذ الزنكلوني ، الشيخ طنطاوي جوهري ، الأميرالاي محمد حلمي اسماعيل بك وكثيرون غيرهم غصت بهم قاعة الاحتفالات . وبعد ان تناولوا الشاي والحلوى القى الاستاذ عبد القادر العبد كلمة قيّمة اعتذر فيها عن الدكتور عبد الحميد سعيد رئيس الجمعية العام لعدم تمكنه من حضور الحفلة لحزنه تقيداً بالتقاليد التي جرت عليها اسرته بالنسبة لوفاة فقيدها المرحوم إسماعيل حمد بك ثم أشار الاستاذ العبد الى تقرير جمعية الشبان المسلمين العمومية اختيار الاستاذ الثعالبي لعضوية مجلس إدارتها مع بعض الرجال البارزين في مختلف الاقطار الاسلامية ، ومن ثم سلم السيد الثعالبي كتاب اعتماد العضوية ، وأفاض بعد ذلك فيما عرفه الناس من خلال كريمة في المحتفى به والى غيرته الاسلامية وجهوده العظيمة لتوحيد كلمة المسلمين .

وتبعه الاستاذ الشيخ علي سرور الزنكلوني فكان محاضراً اخلاقياً بليغاً . وقد طرق موضوع « الزعامة » وما يصادفها من معارضة أو تأييد ، وقال ليس للزعماء ان يكرهوا المعارضة ولا أن يناهضوا أعمالها لانها سبيل البحث والهداية وان عليهم ـ اذا كانت وجهتهم الى الخير ـ ان يصفقوا للمعارضين وان يتقبلوا

انتقاداتهم مهما تكن قاسية حرة، بقلوب مملوءة بالايمان فرحة بما تلقاه من تأييد ومن نقد فكلاهما قوة والقوة الثانية ابلغ في تحقيق الغايات من القوة الأولى . فهي كشف للحقائق وبيان للاخطاء وإرجاع عن الهوى الذي طالما يتغلب على الانسان، ومتى كان العمل خالصاً لله فأية غضاضة على العامل في ان يجد من يرشده الى الخير .

ثم قال ما معناه : إن قوة الزعامة لا تكتسب بالمظاهر الفخمة ولا بما يحيط الزعيم به نفسه من وسائل الترف ، ولكن هذه القوة وليدة الايمان والصدق والارادة وقوة العزم والاتجاه في كل شيء الى المثل الأعلى . ثم ناشد الاستاذ الزنكلوني الزعيمين الثعالبي والشهبندر ان يعملا على توحيد صفوف العرب والاخذ بالتعاليم الاسلامية والحض عليها . وقد قوطعت خطبته في كثير من مواقفها بالتصفيق الحاد .

وتكلم بعده الاستاذ الدكتور منصور فهمي بك فطرق موضوع الثقافة الإسلامية ووجوب الظهور بها ، وقال إن تجاربه الطويلة اقنعته بأن الدعوة الى الثقافة الغربية خطأ ، وأنه يجب أن تكون لنا نحن العرب والمسلمين شخصية ذاتية نستطيع ان نحقق بها آمالنا ونؤسس من طريقها مجدنا .

ثم تكلم عن القوتين الروحية والمادية ودعا الى الأولى ، وقال : لا ينفع المدفع ولا تنفع الدبابة إذا كانت القوة المعنوية في الجندي ضعيفة أو مفقودة ، وكان الخطيب في خطابه بليغاً مؤثراً .

وانشد بعده الاستاذ محمد الهراوي ابياتاً رقيقة جاء فيها :

خـذوا مـعـنـى الـوداع مـن الـوفي
إذا عـزم الـحـبـيـب عـلى الـمـضـي
وضـعـت يـدي عـلى قـلبـي لأنـي
اودعـه مـن الـقـلـب الـشـجـي
وقـد بـلغ الـتـشـوق مـنـتـهـاه
ولـمـا يـنـتـقـل قـدم الـمـطي
دعـوت الشعر فـاستعصى وشعـري
على مـا انشـدت لم يـك بـالعصي
ولـكـن مـوقـف الـتـوديـع يـعـيـي
بـيـان الـلوذعـي الالـمـعـي
فـيـا عبـد الـعـزيـز ، وليس قـلبـي
بـحـبـك من عـرفـتـك بـالـخـلي
لئن قصـرت في شعـري ، فـعـذراً
فـمـا أنـا في وداعـك بـالـقـوي

اذا اسـتـعـصـى قـصـيـدي فـي وداع

فـمــا يعـصـى عـلى الـعــود الـهـنـي

ووقف بعد ذلك الاستاذ الشيخ طنطاوي جوهري فخطب فيما يعرفه من تاريخ الاستاذ الثعالبي وهي حوادث مملوءة بالعظات الوطنية .

وخطب الاستاذ محمد لطفي جمعه فأيد الفكرة التي دعا اليها الدكتور منصور فهمي بك وتكلم عن القوة الروحية فأجاد وأفاد .

وفي الختام وقف المحتفى به فعرض صورة واضحة لما كانت عليه الحالة في تونس خلال جهاده الوطني ، ودعا الى الاخذ بمبادىء الشبان المسلمين ووصفها بأنها مبادىء قوية يجب أن نضع فيها كل آمالنا ، وإذا كان الشبان المسلمون قد عقدوا أول اجتماع لهم في فجر الاسلام في دار الارقم بن الارقم ، وقام لهم بهذا ناديهم الأول ، فان ناديهم الحالي يجب أن يضطلع بمهمة الدعوة الإسلامية .

وقبل انصراف المحتفلين القى الاميرالاي محمود حلمي اسماعيل كلمة ذكر فيها بعض ما يعرفه عن اعمال التبشير في السودان وكان ما ألقاه فياضاً بالمعاني والعبر .

الاستاذ الثعالبي
في دار جمعية الشبان المسلمين

اقامت جمعية الشبان المسلمين في الثغر حفلة شاي في دارها عند الساعة السابعة من مساء اليوم دعت اليها نخبة من اهل الفضل والأدب تكريما للزعيم التونسي الكبير الاستاذ عبد العزيز الثعالبي .

وقد أعدت موائد الشاي في القاعة الكبرى وجلس في صدر المائدة الرئيسية حضرة المحتفل به وعن يمينه حضرة صاحب السعادة محمد فهمي الناضوري باشا رئيس الجمعية وعن يساره الاستاذ فهمي عباس موفداً من قبل صاحب السمو الامير عمر طوسون ومن حولهم حضرات الجنرال وهيب باشاوصدقي خليل بك رئيس المحكمة الأهلية والدكتور اسماعيل صدقي بك

(*) جريدة البلاغ المصرية ٣٠ يونية ١٩٣٧ .

والشيخ عبد الله عفيفي ورئيس المحكمة الشرعية بالاسكندرية وباقي المدعوين .

وبعد تناول الشاي تلي ما تيسر من القرآن الكريم . ثم القى الدكتور منصور القاضي كلمة رحب فيها بالاستاذ الثعالبي قائلاً ان الجمعية عرفته من نشأتها ، وإذا كانت تحتفل به اليوم عند عودته الى مسقط رأسه . واقول مسقط رأسه لان مصر وطن لكل مسلم يعمل لخير الاسلام والمسلمين والاستاذ الثعالبي أعماله لخير الاسلام واضحة وإذا كانت تونس تنتظر أوبتـه اليها بعـد طول غيبته ، فمصر التي قدرت جهاده اربعين سنة وهو اول سفير اسلامي لتونس ، اذ تودعه اليوم تحمله رسالة تحية المسلمين فيها لاخوانهم في تونس .

وتكلم بعده فضيلة الشيخ علي عبد العليم منوها بفضل المحتفى به في خدمة الاسلام والمسلمين داعياً له وللعاملين بالتوفيق .

ثم تكلم فضيلة الاستاذ عبد الله عفيفي بذكر ما أصاب الإسلام والمسلمين لا من عدوٍ لهم ولكن من أنفسهم قبل كل شيء إذ أضاعوا الدين وتركوا تعاليمه فحق عليهم ما أصابهم . ثم اهاب بعد حديث طويل حول هذا المعنى بالاستاذ الثعالبي

وبالمسلمين في جميع أنحاء العالم
أتاهم الله من قوة البيان ، فبالبيان بدأ محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم رسالته حتى تجمعت حولـه القلوب . ولتكن للمسلمين في رسول الله أسوة حسنة . واخيراً وقف الاستاذ عبد العزيز يشكر للجمعية ما قامت به من الحفاوة به والتكريم له . ثم تكلم على حالة المسلمين على كثرة عددهم وما ارتضوه لانفسهم بعد أن فتح الله بدينهم الاقطار وجعل دعاته سادة الشعوب والامم ومنه كانت الحضارة والمدنية الحديثة ، وقال في ختام كلمته إنـه لا دواء للمسلمين إلا اتباع سنة الرسـول صلى الله عليه وسلم .

ثم عاد فشكر الجمعية والحاضرين واختتمت الحفلة بآي الذكر الحكيم .

فهـرس

الباب الأول

الباب الثاني

الباب الثالث

الباب الرابع

رقـم 84/8/3000/43

